

## القسم الثالث تعاليم الحاخامات ولبذ من تراجم حياتهم

### الفصل الأول

الرأبي يهوداه هنأسي «الرئيس»  
רבי יהודה ברשמעון (הנשיא)

كان الرأبي يهوداه المقدس - المعروف أحياناً باسم «الرأبي» اختصاراً لعلو شأنه - قد تلقى تعليمه في مجامع دينية عدة ومن جميع مصادر المعرفة المتنوعة المتاحة للطالب ، منذ نعومة أظفاره . وكان الرجل ذا ثروة طائلة ، فلما ترقى إلى شرافة منصب الرئيس أو الكاهن ، أنفق طرفاً كبيراً من ثروته على الفقراء وإعالتهم . وكانت مرجعيته بين أبناء عصره تفوق كل من سبقه ، فحاز على احترامهم ومحبتهم معاً ، وكان يُقال إنه لم يجتمع لأحد منذ عصر موشيه النبي ما اجتمع له من معارف غزيرة وعميقة وسلطة مرجعية وسمو مكانة . ولقد كان أيضاً ، كما كان موشيه ، يتحلى بالتواضع ويتجنب الأبهة ومظاهر السلطة .

وكان يجعل كرسيه بالقرب من باب مجلسه ، لكي يوقر على مستمعيه أمر القيام له عندما يمر بينهم ، وهو نوع من تكريم كان يمارسه غيره من الكهنة . ومن خلال نفوذه لدى أنطونيوس ، كان يُسمح لشعبه بدراسة الشريعة علناً ، كما حازوا جملة من الامتيازات كانوا في السابق محرومين منها ، وحصانة من العديد من إجراءات القمع التي كانوا يعانون منها في السابق . وفي خلال المدة التي شغل بها منصبه الرفيع بالفضل وفيض العطاء ، قام بجمع شروحات الرأبيين السابقين وأطروحاتهم ، مما يؤلف في يومنا الحاضر مجموعة «المشناه» משנה .

يُحكى أن الإمبراطور أرسل مرةً للرّابي يهوداه جوهرة ألماس ثمينة ، طالباً منه عربون صداقة بالمقابل . فأرسل إليه الرّابي رُقعة «مِيزُوزاه» (1) . فقال الإمبراطور : «يا صاحبي إن هديتك زهيدة القيمة بالقياس إلى العطيّة الثمينة التي أرسلتها إليك» .

أجاب الرّابي : «إن ثمةً فارقاً كبيراً ما بين هديتي وهديتك ، حيث أن ما أعطيتني إياه عليّ أن أحافظ عليه وأحترز لئلا يُسرق مني ، أمّا ما أرسلته إليك فهو يحافظ عليك ويحميك ، تماماً كما هو مكتوب : «إذا ذهبت تهديك ، إذا نمت تحرسك» (2)» .

ورغب الرّابي يهوداه بأن يتزوَّج أرملة الرّابي إليعيزر ، فأرسل إليها رسولاً يحمل طلب الخطبة ، فكان جوابها له كما يلي : «أيجوز أن يُضحى الوعاء المخصوص من قبل بالشؤون المقدّسة مُستعملاً الآن لأجل أمور أدنى اعتباراً؟» مُلمحةً إلى أن الرّابي إليعيزر بن شمعون كان أسمى شأنًا من الرّابي يهوداه . فكان لجوابها نفس فحوى المثل السائر : «أيحقّ للرّاعي تعليق أوانيه حيث يعلق صاحب البيت نفائسه؟» .

فلمّا تلقى الرّابي يهوداه هذا الجواب ، أرسل برسالة أخرى إليها يقول : «أصبت ، كان زوجك أكثر مني علماً ، غير أنني على الأقل أجاريه بالفضل» . أجابت الأرملة : «مازلنا مختلفين ، لا أدري إن كان زوجي أكثر علماً من الرّابي يهوداه ، لكنه كان يفوقه بالصّلاح» .

ولكن هل كان الرّابي إليعيزر حقاً يفوق الرّابي يهوداه بعلمه ؟

جرت العادة في المدارس أن أهل العلم من مدرّسين وربّانيين كانوا يجلسون على كراسي مرتفعة ، بينما يقعد التلاميذ على مقاعد واطئة على الأرض . فلمّا كان الرّابي شمعون بن جمليثيل والرّابي يهوشوع بن قرحا وبعض الربّانيين

(1) الميزوزاه هي رُقعة من الرقّ تكتب عليها مقاطع من التوراه (سفر التثنية 6 : 4-10 : 11 :

13-22) ، وتوضع كحرز على ساكفة باب البيت ، تبعاً لإرشادات التوراه .

(2) سفر الأمثال - 6 : 22 .

الآخرين المشهورين جالسين على الكراسي ، كان الرأبي إيعيزر بن شمعون والرأبي يهوداه جالسين قرب الأرض . فرغب الرأبي شمعون بن جَمَلِيثيل ، وهو والد الرأبي يهوداه ، بأن يجعل لابنه سمة تميز ، فحث المدرسين على رفعه إلى أحد الكراسي . ولما تم ذلك ، تكلم الرأبي يهوشوع قائلاً : «مَن كان له أبٌ يتكلم عنه يحيا ، أما مَن لم يكن له فليفعل ما بوسعه ويموت» .

فلما سمع الرتانيون هذا القول قاموا برفع الرأبي إيعيزر بن شمعون أيضاً ، غير أن الرأبي إيعيزر ألقى نفسه مُزدرىً ومُهملأً ، لأن الكلام المذكور صدر قبل رفعه ، فقال : «هل الرأبي يهوداه خيرٌ مني ؟» .

ومنذ ذلك اليوم لم يشعر بأية مودة تجاه الرأبي يهوداه . وكان فيما سبق يساعد هذا الأخير في تحضير المسائل المطروحة أمام المدرسة ، لكنه الآن راح يستخف بأسئلة يهوداه قائلاً : «إنها لا تستحق عناء المناقشة» .

كانت هذه المعاملة شديدة العنت على مشاعر الرأبي يهوداه ، فاشتكى لأبيه أمر الإهانات التي كان يتعرض لها . فقال هذا الأخير : «لا تبتس يا بُني ، ولا تغضب من كلام إيعيزر . فهو أسد ابن أسد (رجل فائق العلم ابن رجل فائق العلم) ، بينما أنت أسد ابن ثعلب (أي أنك أنت عالم ، لكن أباك ليس بذاك) ، ولذا فهو خيرٌ منك» .

ولعل هذا هو السبب الذي دفع الرأبي يهوداه ليقول : «ظهر في هذه الدنيا ثلاثة رجال كانوا مثلاً للحلم والتواضع : أبي ، وأبناء بيتيرا ، ويوناتان بن شاؤول» .

أما ابنا بيتيرا فقد تخليا عن رئاسة الكنيسة الكبرى כנסת הגדולה «كُنَيْسَت هَجْدُولاه» لصالح هليل لكونه رجلاً فائق العلم ، ولهذا تواضعا له . أما يوناتان بن شاؤول فقال لداود : «أنت تحكم على يسرئيل وأنا أكون نائبك» ، فهذا وجه تواضعه . وكذلك الرأبي شمعون بن جَمَلِيثيل ، إذ سمى نفسه ثعلباً .

هذا ولقد عانى الرأبي يهوداه للغاية من آلام الجسد ثلاثة عشر عاماً قبل موته ، ولما شعر بدنو نهايته دعا بأبنائه إليه وكلمهم بما يلي :

«أطيعوا كلام والدتكم يا أبنائي ، واذكروا تعاليم الله العليّ . وحافظوا على قنديل مُضاء في حجرتي ، واجعلوا يوسيف الأوفني وشمعون الإفرائيمي ، خادميّ الوفيين في حياتي ، يحضران كذلك مراسم موتي . أما الآن يا أبنائي ، فدعوني للمرّة الأخيرة أرى حكماء يسرائيل» .

فلما جاء الحكماء ، بحسب طلبه ، قال : «لا تعملوا لي خُطباً أو تأييناً في المدن . بل افتحوا أبواب مدرستي ، وتابعوا مهامكم المقدّسة فيها ثلاثين يوماً بعد موتي . ورغم أن ابني شمعون رجل حكمة وفهم ، فأنا أرغب بأن يكون خليفتي ابني جَمَلِيئيل . وليجلس حنينا بن حاماه في الكرسي الثاني بعد الرئيس . وإني لمحزون لعدم قدرتي على دراسة شريعة الرّب بعد اليوم» .

وبعد ذلك ، رفع يديه إلى السّماء وقال :

«يا ربّ يا إله الكون ، أنت تعلم إن كنتُ عملتُ بإخلاص بهاتين اليدين من أجل مجدك ، لتحصيل العلم بشريعتك ! فليكن مقبولاً لديك يا مالك الكون أن أرقد الآن بسلام !» .

وفي يوم موت الرّابي ، أعلن الرّبانّيون عيداً ويوماً للصلاة على روح رئيسهم المحبوب . وحرصوا كذلك على ألا يتسبّب نبأ موته بتعطيل عبادتهم ، فظلّوا يصلّون حتى أتتهم إشارة من بيت الرّابي ، فقد شعروا جميعهم بهدّة ، وكان طامة أصابهم ، فكفّوا عن الصلاة .

وتمّ دفن الرّابي يهوداه عشية يوم شبّات (السبت المقدّس) ، فمات معه التّواضع ومخافة الله بين الناس .

وقيل إن الرّابي كان لديه خادم أغنى من الإمبراطور<sup>(1)</sup> . ولقد حاز على ثروته من بيع فضلات إصطبلات الرّابي ، ممّا يعطي فكرة عن عدد المواشي التي كان الرّابي يهوداه يمتلكها .

\* \* \*

(1) مثل ذلك يُعقل ؟ وهل ينبغي لرجال الدّين تكريس جهودهم لتحصيل الثروات ؟

## الرأبي شمعون الصالح רבי שמעון הצדיק

كان الرأبي شمعون يقوم بمنصب الكاهن الأكبر خلال فترة عهد الإسكندر الظافر ، حوالي عام 3000<sup>(1)</sup> . ولم ير بنو يهوداه من داع لمحاربة هذا الملك المقاتل ، ولما قدم إلى سورية في طريقه إلى مصر ، بعد انتصاره الأول على جيش الفرس ، انضموا إلى المملكة التي قدمت له فروض الطاعة .

فقام شمعون الصالح ، كمثل عن الأمة ، بالتوجه إلى ساحل البحر لتحية الفاتح ، وهو يرتدي ملابسه الحبرية ، ويحيط به ليف من الكهنة والأعيان بكامل آبهة أتوابهم .

فتقدم الإسكندر فوراً إلى الكاهن الأكبر وحيّاه بحرارة ، فلما عبّر ضباطه عن دهشتهم لهذا الترقق أخبرهم الإسكندر بأن هذا الكاهن بهيئته وصفاته بعينه ، وهو يرتدي هذه الثياب التي عليه بذاتها ، قد تراءى له في منام وبشره بالنصر في حروبه .

وقام شمعون باصطحاب الإسكندر إلى الهيكل ، فلما همّ بالدخول قال : «ليكن مباركاً رب هذا البيت» . ولقد تملكه الإعجاب بروعة البناء ، وعبر عن رغبته بأن يجعل له تمثال يُنصب على سبيل التذكار ، ما بين الرواق والمذبح . فأعلمه شمعون بأنه ليس من المسموح نصب أي تمثال أو صورة ضمن جدران المعبد ، لكنه وعده بغية تخليد ذكره بأن جميع الولدان الذكور المولودين في شعبه بذلك العام سيُسَمون بالإسكندر . وعلى هذا النحو حصل الريانيون المسمون بالإسكندر على أسمائهم .

وأقام الإسكندر على مودته للكاهن الأكبر ، وبشفاعته منح اليهود حرّيتهم الدينية وأعفاهم من ضرائب الجزية في خلال السنة السبّئية (آخر كل سبع سنين) ، كما دخل اليهود في جيش الإسكندر ، وأسهموا في فتوحاته .

---

(1) هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا والفاتح الشهير (356-323 ق.م) . والتاريخ المذكور حسب التقويم العبري الذي يُصطلح عليه أنه يبدأ ببداية الخليفة .

لكن هذه العلاقات لم تستمر للأسف بعد موت الإسكندر . ففي غضون النزاعات التي استمرت بين قواده والتي أعقبت ذلك ودامت عقدين من الزمان ، عانى الشعب اليهودي التباريح . فقام جيش أنتيغونوس وابنه ديميتريوس بإهلاك الحقول الزراعية الخصبة كلها ، وقوضوا السلام المقدس ، وملأوا أهالي مقاطعة اليهودية יהודה (باللاتينية Judaea) بالرعب والفرع .

وكان أن اجتاحت يروشلأيم في يوم شبآت . أما أسوارها الهائلة وتحصيناتها التي لا تُرام منذ أيام نحميا ، فقد تم ثانية اختراقها وكسر صمودها ، وفتحت المدينة على مصراعها أمام أعدائها .

ولقد عاش الرأبي شمعون ليشهد بأم عينيه هذه الأحداث ، وخضعت ثقته بالله ومحبة لشعبه إلى محنة أليمة . لكن إيمانه مع ذلك لم يتزحزح أبداً . فقام بتدعيم الهيكل ، ورَمَّ أركانه المتضررة ، وأرسى أسس المحاكم الخمس . كما قام بتوسيع خزان المياه في الهيكل ، للاحتراز من العوز في أيام الحصار ، ومنذ ذاك الحين أضحت للهيكل مؤنثه الكافية من المياه ، وفي هذا إشارة تتعلق بمناخ يروشلأيم وطبيعة تربتها .

وكذلك لم يُغفل شمعون الشؤون الروحية لشعبه . فلم يتركهم يتوهّمون أن قوتهم وأمنهم إنما كانا يستندان فقط إلى العوامل الدنيوية . بل كان متذكراً تماماً لتعاليم أسلافه : على ثلاثة أمور يقوم خلاص يسرأيل : «على طاعة أوامر الشريعة ، وعلى تقوى الله المتمثلة بالبركة المتأتية من العبادة في الهيكل ، وعلى أعمال الخير والصدقة» .

هذا وإن الحروب والاضطرابات العديدة التي عصفت بالفترة التي عاشها ، كانت حافلة بالشرور المتعددة والفائضة ، فراح ذوو النفوس الفائقة التقوى ، كما في عهد الأنبياء ، ينزعون إلى الاعتزال عن الدنيا ، وتكرس أنفسهم لله عبر «نذر التذير»<sup>(1)</sup> .

(1) التذير ٦٢٤ في اليهودية شخص يلتزم صوماً وتبتلاً معيناً ، غايته تطهير النفس عن طريق إقصائها عن الشهوات . راجع ما يرد عنه في سفر العدد - 6 .

يبد أن الرأبي شمعون لم يقرّ ذلك ، وراح يعترض عليه بعدة طرق . غير أنه مع ذلك أتى على استثناء في إحدى الحالات ، وهي حالة راع شاب ووسيم ، ألفاه مُخلصاً حقاً في رغبته . فلما أتاه هذا الأخير ، راغباً أن يضحى نذيراً استجوبه الكاهن الأكبر على النحو التالي :

«ما الذي يدعوك ، وأنت بهذا الصبّا والوسامة ، وبتلك الذوائب الحريية المنسدلة ، إلى إخفاء هذا الجمال كلّه وإلى اتّضاع ما يُبهج عيون الناظرين ؟» .

فأجاب الشاب : «ذلك لأن ذوائبي المنسدلة كادت توقعني في الخطيئة من أجل الباطل وحسب . لقد رأيت انعكاس صورة وجهي في جدول صافٍ ، وإذا بميل جارف لعبادة الربّ يستولي عليّ ، فها أنا ذا أرغب في الحال بتكريس شعري للربّ ، عن طريق نذر النذير» .

فما كان من شمعون إلا أن قبل الراعي الشاب ، وقال له : «ليته كان لله في يسرّك عديد من النذيرين مثلك» .

ولقد اشتهر الرأبي شمعون بحفظه الدقيق لأحكام الشريعة ، وبخدماته كرئيس وعضو في المجلس الأعلى ، وبالأسلوب الفعّال الذي قوّى به الحماس الديني للشعب ، كما أسهم في أعمالهم ومؤسّساتهم جميعها .

ولقد شغل منصب الكاهن الأكبر مدة أربعين عاماً ، وأعلن بنفسه دنوّ موته باستكمال واجباته في يوم الغفران ٥١٦ (يوم كپور) . فكان لدى دخول قدّس الأقداس في هذا اليوم المقدّس من كل عام ، معتاداً على رؤية طيف يلبس ثياباً بيضاء ، كان يُحصي عليه أعماله خلال تنفيذ مهام منصبه . ففي هذا اليوم بالذات لم يره ، وعدّ ذلك بمثابة النذير على موته . وبالفعل مات بعد مضي سبعة أيام على اليوم المقدّس .

ولقد كرّمته الأجيال باعتباره الأقدس بين الناس ، وكان ثمة تأكيد جازم على حصول آيات الكرامات الإلهية خلال مدة حياته بلا توقّف . غير أن أحفاده تخلّوا عن الدين اليهودي بالكلية ، وكانوا مثلاً حياً لتلك الأفعال التي استجرت على يسرّك الخراب في عهد أنطيوخوس إيفانيس .

وحصل بعد موت شمعون بمدة قصيرة ، وعلى ضوء الانحلال الذي تفسى في الشعب ، أن الأتقياء قرروا أن استخدام اسم الله الأقدس ينبغي أن يكون حكراً على الكهنة فحسب . وتم استبدال الحروف الأربعة للاسم المقدس نفسه<sup>(1)</sup> ، الذي بقي يُنطق فقط على لسان الكهنة عندما كانوا يختتمون صلاة الأضحية اليومية ، فيتلفظون بالباركة للشعب ، وكذلك على لسان الكاهن الأكبر في يوم الغفران .

### الرأبي يشمعييل ، الكاهن الأكبر רבי ישמעאל כהן הגדול

كان الرأبي يشمعييل واحداً من أبرز وأرقى آباء الأدب التلمودي . وكان صافي العقيدة ، سامي الفكر ، ذا شروح جلية ودقيقة . ولقد قضى شهيد العسف الروماني ، فكانت هذه النهاية تتويجاً للحقيقة والمصادقية لأعمال حياته ومقولاته كلها .

إن كان ثمة خلود تاريخي وخلود للروح ، فإن الرأبي يشمعييل قد حاز الأول وكان راسخ الإيمان بالثاني . إن من يظن أن عقيدة خلود الروح هي نتيجة لأباطيل الإنسان الذي يدعي لنفسه أفضلية مُتخيلة على باقي الكائنات ، ومن يظن أنها مبدأ خيالي قديم في التاريخ لا يمكن دونه لمحاكم الشريعة أن تثبت من نزعة الإنسان الطبيعية لفعل الشر ، لا يمكنه أبداً السمو إلى جراءة الاستشهاد وشرفه . أما بالنسبة للرأبي يشمعييل ، فإن الإدراك العام ومبادئ الفطرة تثبت صحة هذا المعتقد .

فأولاً : ما من ذرة من المادة في وسع الكون بأسره يمكن أن تضيع ، فكيف يمكن إذاً لروح الإنسان أن تتلاشى ، وهي تؤلف العالم بأسره في فكرة واحدة ؟

ثانياً : في الطبيعة بأسرها ، ليس الموت سوى عملية تحوّل ، وأما مع الروح فهو المدخل إلى مملكة جديدة وأكثر سمواً .

(1) ذكرنا أن اسم الله الأعظم في العبرية : יהוה ينبغي لليهود عدم التلفظ به إلا مرة في السنة (يوم كيبور) تعظيماً له ، ويستعاض عنه بلفظ : יהוה (أدوناي) : ربي ، مولاي .

ثالثاً : إن أفكارنا ومشاعرنا ، التابعة أصلاً من الروح ، ليست ذات طبيعة دُنْيَوِيَّة .

كذلك فإن الرأبي يشمّعل دافع بحماسة عن عقيدة التخيير لدى الإنسان . قال الرأبي : «عندما يدخل امرؤُ درب الحقّ والعدل ، فإن الله يكون في عونه ، لكنه عندما يختار طريق المعصية فإن الله يقول : «أما وقد أعطيتك العقل وحرية الإرادة ، فامض إذاً لما تشاء» ، وهذا كشأن البائع الذي يخدم الزبون الذي يشتري بضاعة وأشياء مفيدة ، أما الذي يطلب الزفت أو الكبريت فيقول له : «امض فاحمله بنفسك» .

وهنا يسأل كثير من الناس : «فلماذا إذاً يسمح الله بوقوع كل ذلك القدر من الفساد والشرّ؟» ، يجيب الرأبي يشمّعل : «هذا ليس من فعل الله ، بل منكم ، فأنتم بالذات مصدر الشرور الأخلاقية والدّاعمون لها . فإن كان حقلٌ ما مُمرعاً بالأعشاب الضارة ، هل يتدمر الفلاح إلى الله ؟ لا ، بل ليُلم نفسه على إهماله وكسله . أما من يمتلك حساً قويمًا صادقاً ، فهو يُقرّ بأن فضائله إنما تعود إلى عمله هو ، وأما المُسرف على نفسه فهو لا يعرف إلا أن خطيئته هي له فحسب ، فوهاً له . إن عبارة «للتقي الصّالح يأتي العون من العلى» هي التي كانت تشدّ من أزر أجدادنا الأتقياء ، وهي التي ينبغي أن تقوي نفوسنا» .

وكذلك فإن تعريفه للإثم<sup>(1)</sup> أيضاً هو أعلى وأسمى من الأفكار المشوشة للعديد من اللاهوتيين .

إن الإثم بمثابة الحاجز في القلب ، وهو عجز عن الشعور والإدراك بكل ما هو نبيل وأصيل وعظيم ، وعن المشاركة في الخير . إن كان للمرء أن يتحرر من ريق الآثام ، فينبغي أن يكون عقله وقلبه مفتوحين لتأثير الإشراق . وينبغي لذلك خضد وطأة أهواء النفس ، والتطهر من التّحامل والآثرة والتّيه .

أما من يحلو له ترديد الرأي المغلوط بأن الدين اليهودي يعدّ الله غير متسامح وحقود ، فيكفيه أن يتلو توصيف الرأبي يشمّعل لفضائل يوم الغفران :

(1) سبق أن ذكرنا أن عبارة «الإثم» مأخوذة عن الإغريقية ، لكننا نورد هنا لاشتهارها .

«إن مَنْ يعصي أمراً واجباً لله ، ثم يتوب ، تجوز له المغفرة للتوّ» .

«إن مَنْ يأتي أمراً محرماً ثم يتوب ، يُغفر له في يوم الغفران» .

«إن مَنْ يقترب ذنباً جزاؤه الطرد أو القتل ، يجوز أن يُغفر له عن طريق المعاناة . وأما مَنْ يدنس اسم الله فلا عقوبة له إلا الموت» .

وما هو تدنيس اسم الله ؟ هو كما يرى الرأبي عمل مَنْ يقترض ثم لا يردّ ما اقترضه ، فهو مقترف لهذا الذنب . يقول الرأبي أبايا : «فِعْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَأْتِي ذَلِكَ ، فَلَا يَكُونُ اسْمُ اللَّهِ مَكْرَماً فِي فَمِهِ» .

ويقول الرأبي يُوْحَنَانُ : «هُوَ فِعْلٌ مَنْ يَحْقِرُ نَفْسَهُ» .

لكن لماذا يكون عصيان الأوامر الواجبة من الممكن التكفير عنه بسهولة ، كما يُظنّ عموماً ، وهي بهذه الأهمية البالغة ؟ يقول الرأبي إن الذنب الذي يُقترب في حق النَّاسِ أَشَدُّ فِي عَيْنِي اللَّهِ تَمَّ يُقْتَرَفُ فِي حَقِّهِ هُوَ .

### الرأبي مثير

רבי מאיר

«كل ما يفعله الله حَسَنٌ جداً 110 (Ma)» .

إن الرأبي شمعون بن إلعيزر يعمد إلى استخدام عبارة «حَسَنٌ جداً» للإشارة إلى التَّوَم . فيقول : «ينام الإنسان ، ثم في بضعة ساعات يستعيد قوّة جديدة» . والرأبي صموئيل بن نَحْمَانٍ يقول : «إن الدَّافِعَ الَّذِي يَحِثُّ الرَّجُلَ إِلَى النَّسَاءِ «حَسَنٌ جداً» ، لأنه من خلال ذلك تُشَيَّدُ البيوت وتؤلَّفُ الأُسُر» . وكان من رأي الرأبي هَمُّونَا أَنَّهُ مَا مِنْ مَعْنَى أَكْثَرِ فَاعِلِيَّةٍ يُمْكِنُ نَسْبُهُ إِلَى عِبَارَةِ «حَسَنٌ جداً» كَمَا هُوَ الْحَالُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالثَّأْرِ ، وَالرَّأبِيُّ شَمْعُونُ بْنُ لَكَيْشٍ يَنْسِبُهَا إِلَى الْحُكْمِ السِّيَاسِيِّ ، أَمَّا تَعَالِيمُ الرَّأبِيِّ مَثِيرٍ فَتَنْصَحُ عَلَيَّ أَنَّ مَوْتَ الْإِنْسَانِ «حَسَنٌ جداً»<sup>(1)</sup> .

(1) التلمود يحفل إلى الغاية بذكر المسائل الفقهية والمطارحات الجدلية الكلامية ، وهنا لم نعمد إلى الإطالة في مثل ذلك ، لأنه فوق حدود طاقة القارئ .

إن غاية الدين اليهودي ليست التفرقة العنصرية وإنما توحيد البشرية<sup>(1)</sup> ، وذاك كان أحد أعظم المبادئ التي قامت عليها حياة الرأبي مثير .

وفيما يتعلق بنص الآية القائل : «ليطيع الإنسان الشريعة ويعيش فيها» ، يقول : «إن النص المقدس لا يحدد اليسرئيليين ، ولا اللّيويين ولا الكهنة ، إنما الناس عموماً ، ولذا فإن الشخص الأممي الذي يطيع الشريعة يكون على حدّ سواء مثل الكاهن الأكبر» .

وفضلاً عن ذلك قال : «إمش أمام الجميع بتواضع ورفق ، لا أمام من يتبع دينك فحسب ، بل أمام الجميع» .

وكان الرأبي مثير عالماً لا يُجارى في حقل القصص الرّمزيّة ، ويُقال إنه كان يحفظ حول الثعلب وحده ثلاث مئة قصّة . ومن هذه القصص لم يصلنا سوى ثلاث بُدّ فقط .

«قال بعض الثعالب لدبّ : «تعال بنا نذهب إلى ذاك المطبخ ، فهم يقومون بالإعداد ليوم شَبّات ، وسيكون بوسعنا أن نحصل على الطعام . فتبع الدبّ الثعلب ، لكن لكبر حجمه قُبض عليه ونال جزاءً مريراً . فلغضبه من جرّاء ذلك نوى أن يمزق الثعلب إرباً ، بحجّة أن أسلاف الثعلب كانوا مرّة قد سرقوا طعامه ، ومن هنا أتى القول الأول : «الآباء يأكلون الحُصرُم ، والأبناء يضرسون» .

«قال الثعلب : «لا ، بل امض معي يا صاحبي العزيز ولا داعي لتشاجر ، سأخذك إلى مكان آخر حيث نجد الطعام دون ريب» . ثم أخذ الثعلب الدبّ إلى عين ماء ، حيث كان ثمة دلوّان مربوطين معاً بحبل ، على هيئة ميزان . وكان الوقت ليلاً ، فأشار الثعلب إلى انعكاس صورة القمر على الماء ، قائلاً : «ثمة جبن طيّب ، فلنزل وتناول به بكل متعة» . ودخل الثعلب الدلوّ أولاً ، لكن بما أنه كان خفيفاً للغاية بالمقارنة مع وزن الدبّ ، أخذ معه حجراً . ولكن حالما قفز الدبّ إلى الدلوّ الآخر رمى الثعلب بالحجر ، فإذا به يرتفع ، بينما غاص الدبّ إلى قعر البئر» .

(1) ليس هذا بصحيح أبداً ، بل إن مبدأ اليهودية يضع اليهود فوق بقية البشر كلهم .

فهنا يجعل مقولته الثانية : «الصالح ينجو من الأزمان ، ومكانه يقع الشرير» . وعلى كل امرئ أن يعاني مما جتته يدها من ذنوب ، وبما كسبته نفسه من خطايا . وإنّ مَنْ يتبع نجوم الليل ومراتع الفجور مصيره الهلاك دون ريب ، أما الصالح وإن كان يحمل حجراً (ذنبا) ، فبوسعه أن يتبذه قبل فوات الأوان ، وينجو من الموت .

كان إيشاع بن أبويه العتيق (عبد روماني أعتق) ، الملقب باسم «أخير» אחר (الآخر - الكافر) ، رجلاً ذا علم راسخ ، وكان واحداً من أساتذة الرأبي مثير ، وكاننا مراراً ما يتساجلان في شؤون المقاطع التوراتية .

وكان الناس غير راضين عن معاشره الرأبي مثير له<sup>(1)</sup> ، فدعوه لذلك باسم «أخيريم» אחרים ، وهي كلمة مؤلفة من أحرف مثير وأخير . غير أن الرأبي مثير كان يحيلهم إلى المثل القائل : «أصغ بأذنك إلى كلام الحكماء ، ولكن وجه قلبك إلى ما في فكري» .

كان الرأبي مثير يأكل التمر وينبذ النوى ، ومرة صادف شجرة رمان ، فلما أكل التمر كان يرمي القشر . غير أن أبناء جيله ما كانوا يفهمونه . وفي إحدى المناسبات قال أخير للرأبي مثير : «لماذا تُشبه الشريعة بالذهب والزجاج؟» .

أجاب الرأبي مثير : «لأنها عزيزة المنال كما هو الذهب عزيز في المعادن ، لكنها عرضة للنسيان بالسهولة ذاتها التي ينكسر بها الزجاج» .

أجاب الآخر نقلاً عن الرأبي عقيبا : «لا ، بل السبب هو ما يلي : عندما يتكسر الذهب والزجاج يمكن أن يُصهرا معاً ويشكّلا بهيئات جديدة . فكذلك هو شأن طالب الشريعة ، رغم أنه قد يقترف عدّة خطايا يبقى منه أمل» .

وكان الرأبي مثير يؤثر عمل الخير على الدوام ، وعباية الإنسان بنفسه كما بالآخرين . وكان يؤكد على أن «الغني بالفعل هو مَنْ يتمتع بغناه» .

(1) لأن إيشاع ارتدّ في آخر عمره عن اليهودية ، كما سيرد في الفصل الثالث أدناه ص 305 .

أما الآية الواردة في سفر ملاخي (2 : 6) : «وأرجع كثيرين عن الإثم» ، فقد فسرها على أن المعنى بها هو أهرون ، أول من ولي منصب الكاهن الأكبر ، الذي كان له من المكانة بحيث أن مجرد ذكر اسمه ، أو التفكير بالكيفية التي قد يعتبر بها عملاً ما فيما لو كان حاضراً ، كان يكفي لمنع الكثيرين من الوقوع في الخطيئة .

في إحدى المرات قال رجل وثني للرأبي مثير : «هل يُعقل أن الله ، الذي تؤكد أن جلالتة تملأ الكون الفسيح ، يمكن أن يتكلم من بين ضلعي تابوت الحرم المقدس ؟» .

فللإجابة على هذا السؤال ، حمل الرأبي مثير أمام الوثني مرأتين ، فرأى السائل في كل واحدة منهما صورته . قال الرأبي : «الآن ، في كل مرآة قد صغر حجم جسدك ليتلاءم مع مقياس المرأة . أف يكون مثل هذا الأمر إذاً مستحيلاً على الله ؟ إن الدنيا هي بمثابة مرآة الكبرى ، والحرم المقدس مرآة الصغرى» .

أما بخصوص التعليم ، فكان الرأبي مثير يقول دائماً : «علم تلامذتك بشكل مختصر» . وكان يقول أيضاً : «لتكن تطبيقاتك موجزة» ، وكانت نصيحته للأباء هي : «علم ابنك حرفة قويم» .

أما حكمته المفضلة فكانت : «كُن مصمماً على معرفة طريقي ، وكُن نابهاً على أبواب الشريعة ، واحترز على شريعة قلبك . وليكن نُصب عينيك الخشية مني ، واحم فمك من الوقوع في الذنب ، طهر نفسك ونزهاها عن كل إثم وذنوب ، فيكون الله إذاً معك» .

ومن خلال عبارة : «كُن نابهاً على أبواب الشريعة» ، يبين الرأبي مثير أن على كل دارس أن يتلمذ على ثلاثة مدرسين على الأقل ، ولكلمة «أبواب» معنى أو مفهوم خاص . فعلى سبيل المثال ، عندما يمر شخص بباب بيت أمضى فيه شهر العسل ، أو بباب دار عدل حكم عليه فيها أو تمت تبرئته ، أو بباب بيت قام فيه باقتراف ذنب ما ، فكم من الخواطر المختلفة والمشاعر والذكريات ستجول في خاطره . فبالوظة ذاتها ينبغي أن تنطبع في ذهنه أوقات تدارسه للشريعة .

يُسمّى اليسرّائيون «أبناء الله» ، والرّابي مثير لم ينّ يقدم هذه الرّابطة البنيويّة بوصفها الحقيقي ، مُترعاً إلى الثّمالة كأس السّعادة العائليّة ، ومظهِراً إيّاها لأعين الشعب . ولقد قال : «النّبي يرّمياه يسمّينا «بنون جاهلون» ، وفي سفر التّثنية يُشار إلينا بعبارة «هذا الجيل الشّرير» ، لكننا على أيّ حال ووجه نبقي نحن «أبناء الله» .

هذا ولقد كانت امرأة الرّابي مثير طيبة وصالحة كزوجها .

كان بجوار الرّابي يقطن بعض أتباع الدّين اليهودي ممّن يتبعون أعراف الإغريق ، فكان الرّابي يتبرّم منهم كثيراً وكاد لشدة غيظه أن يدعو الله ليهلكهم ، غير أن برورياه ברוך אמה قالت : «لا تنس تعاليم دينك . لا تدعُ بموت المذنبين ، بل بأن تزول الذّنوب ذاتها ولا يبقى ثمة مجال لدوامها» .

وخلال غياب الرّابي عن بيته في إحدى المرّات ، مات اثنان من أبنائه . فما كان من أمّهما إلا أن كتمت حزنها ، وانتظرت عودة الأب ، فقالت له :

«يا زوجي ، منذ مُدّة سلّمت إليّ جوهرتان فائقتا القيمة ، برسم الأمانة . واليوم إذا بمن ائتمنتي عليهما يطلبهما ، فقمّت بتسليمهما إلى يديه !» .

قال الرّابي مُثنيّاً : «هذا والله حقّ ، ينبغي لنا دوماً أن نردّ بكلّ رضا وأمانة كلّ ما يوضع في أمانتنا» .

بُعيد ذلك ، سأل الرّابي عن ابنه ، فما كان من الأمّ إلا أن أخذت بيده ، واصطحبته برفق إلى حجرة الموت . فتفرّس مثير بولديه ، ولما أدرك حقيقة الأمر انفجر يبكي بمرارة ولوعة .

«لا تبك يا زوجي الحبيب» ، قالت الزّوجة التّيبلة ، «ألم تقل لي إن علينا أن نردّ برضا عندما يُطلب منا كلّ ما وُضع في أمانتنا ؟ فإله أعطانا هاتين الجوهرتين وتركهما معنا لبعض الوقت ، فابتهجنا بحيازتهما ، لكنه سُبْحانه الآن طلب ما هو له ، فليس لنا إلا السّمع والطّاعة بغير تدمر» .

\* \* \*

## هَلِيلُ هَنَّاْسِي הלל הנשיא

كان هَلِيلُ «رئيسَ يِسْرَائِيلَ» سَلِيلَ عَائِلَةِ بَارزَةَ ، فكان أبوه من سِبْطِ بِنِيامينَ بينما كانت أمه تنتمي لِنَسَبِ مَبْشَرِ لِلْمَلِكِ دَاوِدَ . وعاش قبل حوالي مئة عام من دمار الهيكل الثاني ، وسُمِّي هَلِيلُ الْبَابِلِي لِكُونِهِ وَكُدَ فِي بَابِلَ .

كان الرَّجُلُ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ مَدِينَتَهُ الْأُمَّ كَيْمَا يَشْرَعَ فِي دَرَاةِ الشَّرِيعَةِ ، فَوَاطَبَ عَلَى الدَّرَاةِ عَلَى شَمْعِيَاهُ وَأَبْطَالِيُونَ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ عَاماً ، ثم منذ ذلك الحين حتى موته ، بعد أربعين عاماً ، كان رئيس المدرسة .

وخلال مَدَّةِ حَيَاتِهِ كَتَمِيذَ ، كان هَلِيلُ مَرَاراً يَعْانِي الْعُسْرَ فِي مَتَابَعَةِ دَرَاةَاتِهِ . وثمة حكاية مشهورة عنه حول ذلك ، أنه في إحدى المرات عندما كان لا يملك القسط الذي يطلبه البواب للدخول إلى المدرسة ، قام بتسلق عتبة النافذة رغبةً منه في الاستماع إلى المحاضرة عبر مصراعي النافذة . وصادف أن الثلج كان يهطل ، ولفت انتباه التلاميذ إلى حدٍّ بالغٍ أن هَلِيلَ اكْتَسَى بِالثَلْجِ تَمَاماً دُونَ أَنْ يَلْقَى إِلَى ذَلِكَ بِالْأَمْرِ ، حتى أنه فقد الحسَّ من جرأء البرد . ولقد انتبه إليه أولئك الذين في الدآخل بسبب حلول العتمة باكراً في الحجرة ، فقاموا بحمله إلى الدآخل وعملوا على رُدِّ وِعِيهِ إِلَيْهِ .

هذا ولقد تمَّ ارتقاء هَلِيلَ إِلَى رِئَاةِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى نَحْوِ مَبْهَرٍ . فلقد حلَّتْ عَشِيَّةَ عِيدِ الْفَصْحِ فِي يَوْمِ شَبَّاتِ (السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ) ، وكان كبيراً الحاخاميم في مدينة يَرُوشَلَايِمَ (أورشليم) آنذاك هما ابني بيتيرا ، فسُئِلَا فِي شَأْنِ الْفَتْوَى حَوْلَ مَشْرُوعِيَّةِ وَصْحَةِ إِعْدَادِ وَجِبَةِ عَجَلِ الْفَصْحِ ضَمْنَ يَوْمِ شَبَّاتِ . ولما عجز الاثنان عن حلِّ المسألة ، قيل لهما بأن ثمة رجلاً من بابل ممن درسوا على الحبرين الشهيرين شَمْعِيَاهُ وَأَبْطَالِيُونَ هُوَ الْآنَ فِي الْمَدِينَةِ ، وبوسعه مساعدتهما في الأمر . فتمَّ استدعاء هَلِيلَ فَأَجَابَ عَلَى الْمَسْأَلَةِ بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَجَلَاءَ ، ممَّا جعل ابني بيتيرا ينريان قائلين : «والله إنك لأجدر منا وأقدر على تولي منصبنا هذا» ، ومن خلال وساطتهما تمَّ انتخاب هَلِيلَ رِئِيساً لِلْمَدْرَسَةِ فِي عَامِ 3728 لِلخَلِيقَةِ .

وكان هليل رجلاً رائق المزاج وطيب السيرة ، لكنه سرعان ما واجه خصماً حاداً المزاج وعجولاً هو شمّاي<sup>(1)</sup> . قام شمّاي بتأسيس مدرسة سمّاها בית שמואל (بيت شمّاي) ، فاشتجرت بينها وبين مدرسة «بيت هليل» בית הלל المساجلات الفقهية بشكل حاد ودائم ، ولكن في الغالبية العظمى من الحالات كانت الأسبقية في السّجال العلمي لصالح هليل وتلامذته .

وكان عدد تلاميذ هليل ثمانين ، أبرزهم يهوناتان بن عوزيثيل .

في إحدى المرّات أتى ملحد إلى شمّاي الرّابي ، وسأله بطريق الهزاء أن يلقنه مبادئ العقيدة اليهودية في خلال الفترة التي يمكنه الوقوف فيها على قدم واحدة . فما كان من شمّاي إلا أن استشاط غضباً ، وانتهره طارداً أيّاه ، فذهب الرّجل عندها إلى هليل ، الذي ابتدره قائلاً :

«ما تكره لنفسك لا تفعله لغيرك» . هذا هو جوهر الشريعة ، وأما ما عداها فلا يعدو أن يكون تفسيراً لها» .

هناك كثير من التلامذة الأغبياء يطرحون أسئلة تدعو إلى الغيظ . سأل أحدهم : «كم قانوناً يوجد للشريعة ؟» .

أجاب هليل : «اثنان ، القانون الشفهي والقانون المكتوب» .

قال التلميذ : «فأنا أوّمن بالأخير ، لكن لماذا علي أن ألتزم الأوّل ؟» .

فعندها سطر هليل الأبجدية العبرية على صحيفة ، وأشار إلى الحرف الأوّل منها ، وسأل التلميذ : «ما هو هذا الحرف ؟» .

قال التلميذ : «ألف» .

قال هليل : «حسن ، فما التالي ؟» ، وأشار إليه .

«بيت» .

«حسن أيضاً ، فما أدراك أن هذا «ألف» وذاك «بيت» ؟» .

«هذا ما أخذناه عن معلّمينا وأسلافنا» .

(1) أنشأ شمّاي مدرسته لحكماء اليهود (الكتبة) في أورشليم بالقرن الأول الميلادي ، وكان ألد أعداء فرقة الفريسيين التلموديين التي يتزعمها هليل ، فلهذا يتهمونه بالتشدد .

قال هليل : «فإذاً ، كما ارتضيت ذلك بالإيمان ، عليك أن ترتضي بقانون الشريعة» .

وكدليل على تفكير هليل العملي ، وعلى تفهمه الواسع لحاجات عصره ومتطلباته ، هاك هذه القصة المعبرة :

بحسب شرائع التوراه ، ينبغي توفية الديون جميعها في السنة السبئية (آخر سبع سنين) שנת שמיטה «شناه شميطة» ، كما هو مكتوب : «في آخر سبع سنين تعمل إبراءً ، . . . مما أقرضَ جاره» ، إلخ (سفر التثنية - 15 : 1-2) . فهذا القانون ، المقصود به الحد من تفاوت الثروة ، والموائم للحاجة التي سن من أجلها في بعض الأحوال ، كان في عهد الملك هيرود مصدرراً للإشكالات . فكان الغنيّ يُحجم عن إقراض أمواله كمن هم بأمس الحاجة إليها ، خوفاً من فقدانها جراء شروط هذا القانون الشرعي . فلدرء هذا الضرر قام هليل ، دون أن يعمد مباشرة إلى إبطال شرعة التحديد الإلزامي ، بسنّ حاشية تقضي بأن من حقّ الدائن أن يستصدر إقراراً مفضياً نظامياً قبل السنة السبئية ، يكفل له حقه باسترداد ديونه المتركمة في أي وقت يراه مناسباً . فكان هذا التشريع مفيداً لكل من الغني والفقير على حدّ سواء ، وأضحى قانوناً سارياً بإجازة الحاخامات له .

وكانت وفاة هليل حوالي العام 3764 للخليقة .

### الرأبي «راشي»

רבי ראשי

«راشي» اسم مُركَّب من الحروف الأولى لعبارة : «رأبي شلومو يصحاقي» רבי שלמה צחקי (الحاخام شلومو بن يصحاق) ، ولقد وُلد حوالي عام 1040 للميلاد في تروا Troyes بفرنسا . ولما كان صبيّاً كان تحصيله الدراسي متألّفاً ، فأجاد في أشدّ العلوم تعقيداً بغير ما عناء ، وحاز إلى جانب تمرسه الكبير في الفيلولوجيا ، والفلسفة ، والطب ، والفلك ، والقانون المدني ، على براعة تامّة في حقول المعارف التوراتية والتلمودية الرَّحبة .

ولقد شرع راشي في كتابة تفاسيره على أسفار التوراه في سنّ غصّة للغاية ، فأكملها كما يُقال في سنّ الثالثة والثلاثين . لكنه قبل أن يطرحها على الملأ ارتحل سبع سنين ، ليزور جامعات إيطاليا واليونان وألمانيا وفلسطين ومصر ، ويستجمع لصالح الأجيال القادمة كلّ ما يمكن جمعه لعلامة متقن مثله ، ذي عين مدققة ، وذهن متقد موهوب ، وعقلية باحثة دؤوية .

ولدى عودته إلى فرنسا ، نشر راشي تفسيره لأسفار الكتاب المقدّس ، في كتاب لم يتمكّن أحدٌ بعده أبداً من تجاوزه بالقيمة ، وما زال إلى العصر الحاضر يُنشر مُرفقاً بالنسخ العبرية من الكتاب المقدّس (توراه ، نيبيم ، كويم) . كما ألحق به بعد برهة من الزمن تفسيراً لثلاثة وعشرين مبحثاً من مباحث التلمود<sup>(1)</sup> .

وما لبث كثير من كتبه لم يُنشر قطّ ، فيما نُشر بعضها الآخر وأزجي أمام الملأ ، فمنها كتابٌ في الطبّ ، وقصيدة بعنوان : «توحيد الله» . وتوقّي راشي (عام 1105 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، عن ثلاث بنات ، كانت إحداهن (يوكييد) أم الرّابي صموئيل بن مثير ، الذي اضطلع بتحرير أعمال جدّه وأضاف إليها أشياء .

أضحت عبقرية راشي ونفسه الرقيقة وعلومه الزّاهرة مضرب الأمثال لدى الأجيال التالية ، وغدا بطلاً للعديد من الأساطير من النوع الذي كانت العقول في تلك الأيام السّالفة متعطّشة للاعتقاد بها والمبالغة فيها .

يُروى أن أحد ملوك البلاد دعاه في إحدى المرّات ، وقال له : «لقد جهّزتُ مئة ألف عربة ومئتي سفينة ، وأرغب في احتلال بيت المقدّس . وطالما أن جنودي وضباطي يتفوقون بفتونهم القتالية وشجاعتهم على الذين يحتلونها الآن ، فما تراه لي من حظوظ الفلاح ؟»<sup>(2)</sup> .

أجاب راشي : «لستولين على القدس ، وتحكمتها ثلاثة أيام ، لكنك عائدٌ إلى هذه المدينة ومعك ثلاثة جياد وبقدرها من الرّجال على متنها» .

(1) تُعرف إلى اليوم باسم : شروح الحاخام راشي . راجع مقدّمنا لهذا الكتاب .  
(2) الحاكم المذكور هو غودفروا دي بويون Godefroi de Bouillon ، احتل القدس 1099 م .

فابتدرة الملك قائلاً ، والغیظ من نبوءته يأخذ منه كل ماخذ : «إذاً فإيّاك أن تراني راجعاً بأربعة جياد ، لأنني إن عدتُ ولو بجواد واحد فقط أكثر مما تقول ، سوف أطرح لحمك لطيور السماء» .

ودامت الحرب أربع سنين<sup>(1)</sup> . وعاد هذا الملك أدراجه وليس معه من جيشه كلّهُ سوى أربعة خيالة ، وفيما كانوا يعبرون بوابات المدينة سقط حجر فقتل جواداً مع راكبه على الفور . فأعاد ذلك إلى الأذهان كلام راشي ، ولكن عندما طلبه الملك ، ألقى أن الشيخ خلال غيابه قد بارح عالم الأحياء .

ويُزعم أن كرسي راشي الذي كان في المدرسة ما زال موجوداً إلى اليوم .

وكان راشي يُعرف أيضاً باسم «يرحي» 777 ، المشتق من اسم المدينة التي كان يعيش فيها (Lunel) ، حيث أن اسم «يريح» 777 في العبرية يعني القمر ، كما هو اسم lune في الفرنسية ، والذي يقابل اسم المدينة .

نجد في تعاليم التلمود : «الصالح لا يموت» ، وكذلك : «ما أسعد من الذي يجد ضالته في الحكمة ، ويحوز نعمة الفهم» .

### الرّابي مؤشيه بن ميمون

רבי משה ברמימון

يُعدّ الرّابي مؤشيه بن ميمون<sup>(2)</sup> (أو «رمبم» 777 ، اختصاراً لعبارة : راينو مؤشيه بن ميمون) أحد أعظم علماء التفسير اليهودي ، وهو فوق ذلك من سلالة الرّابي يهوداه جامع المشناه . وُلد في مدينة قرطبة Cordova بالأندلس في 30 آذار من عام 1135 للميلاد . كان أبوه مُسنّاً بعض الشيء عندما تزوّج ، ويروى أنه دخل الحياة الزوجية عن طريق حلم تراءى له مرّات متتالية بأنه يتزوّج ابنة جزّار يُقيم في حيّه ، وكانت تلك هي المرأة التي تزوّجها بالفعل .

(1) بدأت الحملة الصليبية الأولى عام 1095 م وسقطت القدس 1099 م ، ومات راشي 1105 م .

(2) انظر كتاب إسرائيل ولفنسون : «موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته» ، القاهرة 1936 .

كان موشيه الابن الوحيد الذي أنجبته هذه المرأة ، ثم ما لبثت أن توفيت عقب ولادته . والتزم أبوه بالحداد على رحيلها لحوالي العام ، ثم عاد فتزوج من جديد ، ورزق من هذا الزواج الثاني بعدة أبناء .

لم تبدُ على موشيه في صغره مخايل النجاة أو حبّ العلم ، وهذا ما أحزن قلب أبيه كثيراً . وأخفقت جميع المحاولات لحثّه على متابعة التحصيل ، فراح إخوته ينعتونه بلقب «صبي الجزار» ، كنوع من الغمز على بلادته ، وفي نهاية المطاف استبدّ الغضب بأبيه فطرده من منزله .

راح موشيه يرتحل في البلاد ، بغير معين أو رفيق ، فصادف ربّانياً متفقهاً في الدّين ، فأعجب بحكمته ومعرفته أيما إعجاب ، إلى حدّ أنه قرّر أن يدرس مجدداً إلى أن يضاھي هذه الدّرجة الرّفيعة من العلم .

بعد مضيّ عدّة سنوات ، أعلن عن تعيين واعظ جديد ليُلقي خطبة الصّلاة في كنيس قرطبة بأحد أيّام شَبّات . وراحت الأخبار والأقاويل تتشال حول علومه الغزيرة وفقهه العميق وفصاحته البليغة ، حتى تملّك الشوق الجميع للاستماع إلى موعظته . ولما حلّ يوم شَبّات ، واستمع الناس إلى الخطبة ، وجدوا فيها مادّة وحسن إلقاء وصدقاً وتأثيراً تفوق كل ما كانوا عهدوه من قبل ، وكم كانت دهشة ميمون الأب وأبنائه عندما ألفوا أن الرّجل الذي كانوا تواقين للتشرف برؤيته ما كان غير قريبهم الطريد .

كان أول تفسير وضعه موشيه بن ميمون على متن «المشناه» ، واختتمه بهذه العبارة : «أنا موشيه بن ميمون ، شرعتُ في تأليف هذا التّفسير لما كنتُ في الثالثة والعشرين من العمر . وفرغتُ منه في سن الثلاثين بأرض مصر» .

وكان أن هرب موشيه بن ميمون إلى قاهرة مصر من الأندلس ، لتفشّي التعصّب والاضطهاد بها ضدّ اليهود . فدرس فيها اللغتين الإغريقيّة والكلدانيّة ، وأتقنهما بعد سبع سنين من المثابرة . وذاع صيته في البلد ، فأقرّ له الجميع بمكانته العلميّة الرّاسخة وعلومه العامّة ، ولم يقتصر اعتبار مؤلّفاته على أبناء دينه ، بل تعدّاهم إلى جميع أهل العلم والمعرفة في عصره .

ويقال إن ملك مصر قد عينه واحداً من بين مجموعة أطبائه<sup>(1)</sup> . وكان رجال العلم في المملكة آنذاك يُقسمون إلى سبع مراتب ، ولكل مرتبة موقع يوازيها بالقرب من عرش الملك في المناسبات الرسمية . وإذ عدَّ الملك مُوشيه بن ميمون متفوقاً على الجميع بمراحل ، فقد خصَّه بموقع متفرد . لكن مُوشيه أبى ذلك لتواضعه ، فيما استشرَّت الغيرة ببقية الأطباء من جرّاء موقعه السّامي ، ولما كانوا عاجزين عن أذيته علانيةً ، فقد جهدوا للطعن به في الخفاء .

أصيب الملك بمرض شديد ، فأشرف مُوشيه على علاجه . وما كان من الأطباء إلا أن استغلّوا ذلك ، فوضعوا السّم غيلةً في جرعة الدواء الذي أعدّه له مُوشيه ، وأخطروا الملك بأن هذا الأخير متأمر على قتله . ولإثبات صحّة كلامهم قاموا بطرح بعض المركّب لكلب ، فما لبث أن مات . حلّ الحزن والدهشة بالملك ، أما مُوشيه الذي عقدت المفاجأة لسانه فبهت ومكث عاجزاً عن الكلام .

قال الملك : «الموت جزاء كلّ من يترصّص بمليكه لاغتياله ، فاختر كيف تُلقَى جزاءك» .

طلب مُوشيه ثلاثة أيام للتفكير ، فأعطاه الملك ما طلب . وخلال هذه المدة أعدّ تركيباً خاصاً ، وأوصى تلامذته بتجهيزه واستعماله بحسب إرشاداته ، عندما يؤتى به إلى بيته فاقداً الرُّشد . ثم مثل أمام الملك ، ورغب إليه بقطع أورده . غير أن الشريان الأساسي بقي بمنأى عن مديّة الجلاد ، كما توقع مُوشيه ، وكانت النتيجة بالتالي كما رسمها . فبعد تعافيه هرب من مصر ، ولجأ إلى كهف ، حيث ألّف كتابه الشهير «يد حَزَقاه»<sup>(2)</sup> (اليد القويّة) ، الذي يتألّف من أربعة عشر فصلاً ، ترمز إليها كلمة «يد» التي تبلغ قيمتها العددية 14 أيضاً .

(1) بعد سنة 1160 م نزحت أسرة ميمون من قرطبة إلى فاس في المغرب ، ومنها أبحرت في حوالي عام 1165 م إلى عكا فمصر واستقرت في مدينة القسطنطينية . وفيها مارس موشيه الطب وذاع صيته ، فعين طبيباً خاصاً للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ثم ابنه الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي .

(2) المعروف أن «يد حَزَقاه» هو ذاته كتاب «مشنيه نُوراه» الوارد ذكره أدناه .

قام مُوشيه بن ميمون بتبسيط قواعد التلمود والمرويات الشفهية ، فبسرّها لأفهام الجمهور . كما ألف مرجعاً شاملاً بعنوان : «مشنيه تُوراه» משנה תורה (أي الشريعة الثانية) ، كان الكتبة يتهافتون على استساخه وانتشر انتشاراً عظيماً . وكذلك وضع عدّة مباحث فلسفية موجّهة ضدّ الإلحاد ، ومركّزة على إثبات أن الله خلق الدّنيا من العدم . ثم لما بلغ الرّجل الخمسين من العمر ، أتخفّ الناس بمؤلّفه الأكبر الموسوم بـ : «مُوريه نبوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) باللّغة العربيّة ، نقله إلى العبريّة الرّأبي يهوداه الحريزي وذيل عليه .

توفي مُوشيه بن ميمون في سنّ السبعين ، فدُفنت عظامه في القاهرة بمصر<sup>(1)</sup> ، ويكاه اليهود وأبناء الأمم الأخرى على حدّ سواء . وكان الحزن عليه بيروشلّايم شديداً ، وتمت إقامة صوم لادم ، وفتحت الكُتُس أبوابها حيث تمت قراءة مقاطع من التوراه (سفر اللّيوين 25 : 12 حتى آخره) ، مع الأصحاح الخامس من سفر صموئيل الأول ، كجزء من صلاة ذلك اليوم<sup>(2)</sup> .

### الرّأبي أمنون من ماينتس

רבי אמנון איש-מינטץ

أثناء ولاية أحد أساقفة ماينتس<sup>(3)</sup> ، كان يعيش في المدينة رجل يهودي يدعى الرّأبي أمنون . وكان ينتمي إلى أسرة رفيعة القدر وله مزايا شخصية عظيمة ، كما كان غنياً ويحترمه كلّ من الأسقف وبقية الناس . كان الأسقف كثيراً ما يلجّ عليه بترك اليهوديّة واعتناق المسيحيّة ، لكن دون أدنى جدوى . ثم في بعض الأيام من جرّاء الضغط عليه أكثر من المعتاد ، ولكي يتملّص من إلحاح الأسقف ، قال على عَجَل : «سوف أفكّر بالأمر ، وأعطيك جواباً خلال ثلاثة أيام» .

(1) ينقل محمد بحر عبد المجيد (اليهود في الأندلس ، ص 90) أنه أسلم قبل موته ودُفن بطبريا

فكتب على مقامه : «دُفن في هذا القبر مُوشيه بن ميمون الطريد المحروم الكافر» !!

(2) وتما يقول عنه اليهود : מאת משה לאת משה לא קם כמשה «من مُوشيه (النبي) إلى مُوشيه (بن ميمون) لم يظهر كمُوشيه» .

(3) ماينتس Maintz مدينة بجنوب غرب ألمانيا ، تقع على نهر الماين قبالة مدينة فيسبادن .

لكنه بمجرد أن خرج عن الأسقف شعر بغصّة في قلبه ، وراح ضميره يؤنبه بشدّة على إبدائه ، ولو على هذا النحو المصطنع ، أدنى شك بخصوص الدّين القويم . فبلغ بيته والأسى يتملكه ، ولما قدّم له اللّحم أبى أن يأكل ، ولما أتى أصحابه لزيارته واستفسروا عن سبب كآبته ، رفض ما أبدوه من مؤاساة ، قائلاً : «تراني أنزل قبري باكياً على هذا الكلام» . وفي اليوم الثالث ، فيما كان لا يزال يتحسّر على تنازله الأرعن ، أرسل إليه الأسقف ، فرفض تلبية دعوته .

وعقب أن رفض تلبية دعوة رُسل الأسقف مراراً ، صدر إليهم الأمر أخيراً بالقبض عليه ، وإحضاره بالقوّة بين يدي الأسقف .

قال الأسقف : «أمنون ، لماذا لم تحضر إليّ كما وعدت ، لتخبرني عن قرارك فيما يخصّ طلبي؟» .

أجاب أمنون : «دّرني أتفوّه بعقويتي بنفسي على هذا الإهمال . فها هو لساني الذي تفوّه بهذا الكلام الأرعن المشكّك ، فليقطع . لقد كذبتُ عليك ، فإنني لا أنوي أبداً التفكير بعرضك» .

قال الأسقف : «لا ، سوف لن أقطع لسانك ، بل إن قدميك اللتين أحجمتا عن القدوم إليّ سوف تُقطعان ، وباقي أعضاء جسدك العنيد سوف تُعذب أيضاً وتُعاقب» .

وتحت أنظار الأسقف وبأمره ، تمّ قطع أصابع قدمي الرّابي أمنون كلّها ، وبعد أن تمّ تعذيبه بشدّة أرسل إلى بيته بعربة ، وإلى جانبه أعضاءه المبتورة .

وتحمّل الرّابي أمنون كل ذلك بمُطلق الرّضا ، ولديه كامل الأمل والثّقة بأن هذا العذاب الدّنيوي سوف يلتبس له المغفرة لدى الله .

كانت بقيّة حياته بالطبع عقب ذلك رهن أيام معدودة . وحلّ عيد رأس السنة «رُوش هسّناه» ראש השנה ، وكان لا يزال على قيد الحياة ، فرغب بأن يُحمل إلى الكنيس . وتمّ نقله إلى بيت الله ، وخلال أداء الصّلاة رغب بالسّماح له بتلاوة دُعاء . فكان كلامه ، الذي تبيّن أنه الأخير ، كما يلي :

«إنني لأُسَبِّحُ بِالْقُدَّاسَةِ التَّامَةِ لِهَذَا الْيَوْمِ ، فَهُوَ مُذْهَلٌ وَجَلِيلٌ . إِنَّ مَلَكُوتَكَ يَا رَبَّ يَتَجَلَّى فِيهِ ، وَإِنَّ عَرَشُكَ مُقَامٌ عَلَى الرَّحْمَةِ ، وَعَلَيْهِ تَسْتَقِرُّ بِالْحَقِّ . أَنْتَ الْحَكَمُ الَّذِي يُجَازِي ، وَلَا يَخْفَى عَلَى عِلْمِكَ أَيَّ شَيْءٍ . فَأَنْتَ الشَّاهِدُ وَالكَاتِبُ وَالْمُقَرَّرُ وَالْمُدَوَّنُ وَمَتَذَكَّرُ كُلِّ شَيْءٍ بِالْحَقِّ ، حَتَّى مَنْ نَحْسِبُهُمْ دُفِنُوا قَدِيمًا فِي الْمَاضِي . أَنْتَ تَفْتَحُ الْكِتَابَ الْمَسْطُورَ ، وَتَأْمُرُ بِنَفْخِ الشُّوفَارِ ٦٥١٧ (الصُّور) ، فَتَرْتَعِدُ حَتَّى الْمَلَائِكَةِ ، فَتَصِيحُ عَالِيًا : «يَوْمَ الدِّينِ بِنَا قَدْ حَلَّ» ، فِيهِ الدِّينُونَةُ لَيْسَتْ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْخَطَا بِمَعْصُومَةٌ» .

«كُلٌّ مَنْ دَخَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَمَامَكَ يَجُوزُ ، تَمَامًا كَمَا يَجْعَلُ الرَّاعِي الْقَطِيعَ الَّذِي يَعْذُهُ يَمْرُتٌ تَحْتَ صَخْرَتِهِ ، فَإِنَّكَ يَا رَبَّ تَأْمُرُ كُلَّ رُوحٍ حَيَّةٍ بِالْمُرُورِ أَمَامَكَ . أَنْتَ تَعْدُ ، وَأَنْتَ تَتَفَقَّدُ ، وَتُعَيِّنُ نَوَاقِصَ كُلِّ مَخْلُوقٍ بِحُكْمِكَ وَأَمْرِكَ» .

«فِي رَأْسِ السَّنَةِ يُكْتَبُ فِي يَوْمِ الْغُضْرَانِ يُقَرَّرُ . أَجَلٌ ، كُلُّ أَوْامِرِكَ تُسَجَّلُ ، مَنْ يَحْيَا وَمَنْ يَمُوتُ . أَسْمَاءُ مَنْ يَلْقَوْنَ حَتْفَهُمْ بِالنَّارِ ، أَوْ بِالغُرُقِ ، أَوْ بِالسَّيْفِ ، أَوْ بِالْجُوعِ ، أَوْ الْعَطَشِ ، أَوْ بِالطَّاعُونَ ، كُلُّهَا مَدُونَةٌ لَدَيْكَ . وَكُلٌّ مَنْ يَلْقَوْنَ الْأَمَانَ ، وَكُلٌّ مَنْ يَلْقَوْنَ النِّقْمَةَ . وَكُلٌّ مَنْ يَلْقَوْنَ الْعَذَابَ ، وَكُلٌّ مَنْ يُبَارَكُونَ بِالذِّعَةِ . وَكُلٌّ مَنْ يُقَدَّرُ لَهُمُ النِّعْمَةُ ، وَمَنْ يَحِلُّ بِهِمُ الْبَلَاءُ . وَمَنْ سَيَكُونُونَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَمَنْ مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَمَنْ يُعَزَّوْنَ وَمَنْ يُذَلَّلُونَ . غَيْرَ أَنَّ التَّوْبَةَ وَالذُّعَاءَ وَالْإِحْسَانَ يَا رَبَّ ، قَدْ تُبْعَدُ كُلُّ مَصِيبَةٍ مُقَدَّرَةٌ !» .

فَلَمَّا اخْتَمَمَ هَذَا الْبَيَانَ ، الَّذِي صَاغَهُ لِلْاعْتِرَافِ بِذَنْبِهِ وَبِعَدَالَةِ الْجِزَاءِ الَّذِي أَصَابَهُ ، خَمَدَتْ أَنْفَاسُ الرَّابِيِّ أَمْنُونَ ، وَمَاتَ عَلَى نَحْوِ لَانِقٍ فِي بَيْتِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ بَنِي يَسْرَائِيلَ الْمُتَجَمِّعِينَ فِيهِ .

لَتَبْقَى تَقْوَى الرَّابِيِّ أَمْنُونَ ذِكْرَى عَطْرَةٍ فِي بَنِي يَسْرَائِيلَ<sup>(1)</sup> ، وَلِيَجْهَدَنَّ كُلُّ مَنْ أَنْ يَحْتَذِيهَا بِالْخَيْرِ ، آمِينَ .

\* \* \*

(1) عاش أمنون في القرن العاشر ، وقصته ترد بكثرة لتربية الناشئة في المدارس اليهودية .

## الفصل الثاني تعاليم الحاخاميم

### فضيلة الإحسان

حسب أمثال السَّلف الصَّالح ، يُعدّ الإحسان من الركائز التي يستند إليها العالم . فيقولون : «بقاء العالم يقوم على فضائل أشياء ثلاثة : الشريعة ، توحيد الله وعبادته ، والإحسان الفعّال» . وأسفار الشريعة الخمسة (التوراه) تبتدئ وتختتم بإحسان ، كما هو مكتوب : «وصنع الربّ الإله لأدم وامرأته أقمصه من جلد وألبسهما» (التكوين - 3 : 21) ، وكذلك : «ودقّته - أي الله -» (تثية - 34 : 6) . وإن تأديّة معروف أو فضل تجاه إنسان تبتدئ في الإحسان إليه دون أي توجّه أو رغبة بالحصول على مقابل ، ويمكن تأديته في حالتين : التكرمّ بفضل على شخص ليس له علينا فضل سابق ، أو تأديّة خدمة أو فضل لشخص رغم كون ذلك يترتب عليه استجرار قدر من المشقة علينا ومن الكسب له أكبر ممّا يستحقّ . والرّحمة المذكورة في أسفار التوراه هي ما يُقدّم دون مقابل ودون رفض من طرف الشخص الممنوحة إليه . والصدقة كذلك نوع من الإحسان ، لكنه يوجّه فقط إلى الفقراء والمحتاجين ، أما الإحسان ذاته فيمكن توجيهه على حدّ سواء إلى الفقير والغني ، وإلى ذي الشأن والوضيع . حتى أن بوسعنا أيضاً أن نمارس الإحسان تجاه الأموات بأن نحضر شعائر جنازتهم ، وهذا هو عين الرّحمة والصدق . فإن تكرّمنا على امرئ ما ، من الممكن عبر توالي الأيام أن يقوم بردّ الجميل ، أما الإحسان تجاه الأموات فهو منتهى الرّحمة ، إذ أنه غير قابل للردّ . وفي ثلاثة أمور يكون الإحسان خيراً من الصدقة : فقد يتمّ تأديّة الإحسان عن طريق المال ، أما الإحسان فبالمال أو بغيره . والصدقة موجّهة للفقير فحسب ، أما الإحسان فللفقير والغني . والصدقة تتمّ للأحياء ، أما الإحسان فللأحياء والأموات .

«خلف الربّ إلهك تمشي». فكيف يكون بإمكاننا أن نمشي خلف الله ؟ إن ذلك يكون من خلال اتباع صفاته واحتذاء أفعاله . الله كَسَى جسد الإنسان العاري ، كما هو مكتوب : «وصنّع الربّ الإله لآدم وامرأته أقمصَةً من جلد والبسهما» ، فلذا علينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عادّ المريض : «تجلّى الله له في غياض مَمْرًا» (وذلك بعد ختانه مباشرة) ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عزّى النَّائح بِحِداد «وحدث بعد موت أبرهَام أن الله بارك ابنه يصحاق» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله دَقَّنَ المِيت ، كما هو مكتوب : «ودَقَّنَهُ - أي الله -» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . وإن حضور جنازة الميت وتشيع جثمان إخواننا الرَّاحِلين إلى مثوَاهم الأخير ، فهو عمل خير لكلّ من الحيّ والميت ، أي للروح الرَّاجِعة إلى بارئها وللمشيّعين على حدّ سواء .

قال الرَّابّي يهوداه : «إذا انتحب شخص ما وناح على نحو زائد لوفاة أحد أقربائه ، فإن حزنه يُضحّي نوعاً من التّدَمّر على مشيئة الله ، وهذا ما يؤدّي به إلى أن ينوح قريباً على وفاة عزيز آخر» . بل علينا أن نتقبّل أمر الله ، ونقول كما قال أيوب : «الربّ أعطى والربّ أخذ ، فتبارك اسمُ الربّ»<sup>(1)</sup> .

وحُسن الضيافة صفة أخرى من صفات عمل الخير . لقد قيل عن أبرهَام : «وَعَرَسَ حديقةً» . فهذه ليست حديقة عادية بالمفهوم الذي نعرفه ، وإنما هي نُزُلٌ ضيافة . وفتح أبرهَام بيته لعابري السبيل ، وقدم لهم القوت بكل كرم . وكان لما يشكره الضيوف على أريحيته يجيهم : «لا تشكروني ، إذ أنني لست مالك هذا المكان ، بل اشكروا الله خالق السّموات والأرض» . وبهذه الطريقة أشاع اسم الله بين الوثنيين . ولذلك أعطانا مثلاً في كرم الضيافة علينا أن نحتديه ، كما هو مكتوب في أمثال الأجداد : «فليكن بيتك مفتوحاً كملجأ ، وليلاقي الفقير مأواه بين جدرانك بكرم وطيب» . فعندما يدخل أولئك بيتك فتلقاهم بعين السّماح وعاجل يبذل خبزك وملحك أمامهم . فلعل الفقير يكون جائعاً ، ويحجم مع ذلك عن طلب الطعام .

(1) الترجمة العربية من سفر أيوب (1 : 21) : «الربّ أعطى والربّ أخذ ، فليكن اسم الربّ مباركاً» . ولا نجد من داعٍ للالتزام بنصّها ، بل يمكن الخروج بما هو خير منها .

وحتى إن كان ثمة كثيراً من المزعجات التي تورق ذاتك ، فعليك أن تخفي شؤونك عن ضيوفك ، وعليك أن تواسيهم إن كانوا بحاجة إلى الكلم الطيب ، ولكن لا تُلَقِّ بمشاكلك الخاصة أمامهم . وتذكر كم تصرف أبرهام بلطف أمام الملائكة الثلاثة وهو يحسبهم من بني البشر ، وكم عاملهم بحسن الضيافة ، قائلاً : «يا أسيادي إن كنتُ وجدتُ نعمةً في أعينكم فلا تتجاوزوا عبدكم ، إلخ» (سفر التكوين - 18 : 3) . عليك أن تكون على الدوام ودوداً ، وعندها إذ تدعو الله يستجب لك .

والله يعرف إن كان القلب الذي يتجه إليه بالدعاء قد أدى إليه كل ما بوسعه من إمكانات . فخلال المدة التي كان فيها الهيكل قائماً ، كان الله يتلقى بالنعمة ذاتها قربان التقدمة بمن يقدم حفنة من الطحين أو ثور أضحية . ولذا فالآن أيضاً تُعدّ تقدمة الفقير مقبولة بالدرجة ذاتها التي تُقبل بها أقصى تقدمة يمكن للغني أداؤها ، إذا كان القلب صافياً منحازاً إلى الربّ .

قيل إن الرأبي طرفون ١١٥٦٧٥ ، رغم كونه غنياً للغاية ، ما كان محباً للصدقة بالنظر إلى إمكاناته المادية . فيوماً ما ، قال له الرأبي عقيبا لا 777 : «أعلتك تودّ أن أستثمر لك مالاً في تجارة العقارات ، على نحو مريح للغاية؟» . فأجاب الرأبي طرفون بالقبول ، وجلب للرأبي عقيبا أربعة آلاف دينار ذهباً ، لتُنفق على ذلك . فما كان من الرأبي عقيبا إلا أن قام على الفور بتوزيع هذا المبلغ على الفقراء . وبعد مضي مدة من الوقت ، صادف الرأبي طرفون المذكور الرأبي عقيبا ، فسأله عن موضع العقار الذي ابتاعه له . فاصطحب عقيبا صديقه إلى المدرسة ، وأراه صبيّاً صغيراً راح يقرأ لهما الزمور رقم 112 ، إلى أن بلغ الآية التاسعة : «فَرَّقَ أعطى المساكين ، يرهُ قائم إلى الأبد» .

«هناك» ، قال عقيبا ، «ملكك مع داود ملك إسرائيل ، الذي قال : «فَرَّقَ أعطى المساكين» . «سأل طرفون : «فلماذا فعلت ذلك؟» .

أجاب عقيبا : «ألا تدري بأن تقديمون بن جورثون جوزي لأنه لم يعط بحسب ما يملك من إمكانات؟» .

أجاب الآخر : «أجل ، ولكن لم تَقُل لي ذلك ؟ ألم يكن بوسعي أن أفرق ما لدي بغير مساعدتك ؟» .

«لا» ، قال عقيبا ، «فهي فضيلة أعظم عندما يُعطي المرء شخصاً آخر ليفرق عنه ، بدلاً من أن يفرق هو بذاته» .

فمن خلال هذه القصة نتعلم بأن من لم يقدم الصدقة بحسب إمكاناته سوف يلقى جزاءه وفقاً .

في مرة من المرات ، كان الرأبي يوحنا بن لكاي راكباً بظاهر يروشلأيم ، وكان تلامذته يتبعونه . فشهدوا امرأة فقيرة تتبّع الحب الذي يسقط من أفواه وجوالق ماشية ترمي ، تعود للعرب . فلما أبصرت بالرأبي ، خاطبته بهذه العبارة المقتضية : «يا رأبي أغشي !» ، فأجاب : «يا ابنتي ، ابنة من أنت ؟» .

أجابت : «أنا ابنة تقديمون بن جوريون» .

فسأل الرأبي : «كيف ؟ ماذا جرى لمال أبيك ؟ ذاك المال الذي نلتِه نَحلة يوم زواجك ؟» .

قالت : «آه ، أليس ثمة مثلٌ في يروشلأيم يقول : «المال يعوزه الملح» ؟»<sup>(1)</sup> .

فتابع الرأبي كلامه : «ومال زوجك ، ما جرى له ؟» .

«الآخر تبع الأول» ، أجابت المرأة ، «قد أضعتُ الاثنين» .

فالتفت الرأبي إلى تلاميذه وقال : «أذكر عندما أمضيتُ عقد زواجها ، أن أباها نَحَلها صدقاً يبلغ ألف دينار ذهباً ، كما كان زوجها بالإضافة إلى ذلك رجلاً غنياً» .

ورق قلب الرأبي للمرأة ، وتصدق عليها ، وبكى لحالها . وقال : «يا بني إسرائيل ، طوبى لكم ما دُمتم تنفدون وصية الربّ ، فلا يظالكم شرٌّ . وأما إن توانيتم عن الالتزام بأوامره ، فالبهائم خيرٌ منكم» .

(1) أي أن الملح يلزم لحفظ اللحم ، وبغيره يفسد . فكذا الصدقة للمال بمثابة الملح للحم .

وَمَنْ يَسْتَكْفِرُ عَنْ أَدَاءِ الصَّدَقَةِ يَقْتَرِفْ ذَنْباً عَظِيماً ، وهذا ما برهنته قصة حياة الرأبي نأحوم . كان نأحوم ، مهما أصابه من صروف الدهر ونكباته ، معتاداً على القول : «هذا كله لخير أراد الله» . ولما أسنّ أمسى ضريراً ، وبُترت يدها ورجلاه ، وكان جذعه مبتلىً بالقروح الأليمة . قال له تلاميذه : «ألست امرء صلاح وثقى ، فما دعوى بلواك ؟» .

أجاب : «تَرَوْنَ ، هذا ما استجررته على نفسي ولم أظلم . ففي بعض الأيام كنت مُرْتَحِلاً صوب بيت نسيبي أبي امرأتي ، ومعني ثلاثون جحشاً محملاً بالمؤن والخيرات ، فصاح بي رجل من قارعة الطريق : «يا رأبي أغثني !» ، فقلت له ليتريث ريثما أنزل حمولة الجحاش . فلما تم الأمر وفرغت من تنزيل الأحمال عن دوابي ، ألفت لشفوتي وبلواي الرجل سقط وهلك لشدة الجوع والإعياء . فارتميت على جنبه ورحت أنتحبُ بمرارة ، وقلتُ : «العينان اللتان لم ترقا لحالك ليكن مصيرهما العمى ، واليدان اللتان تلكأتا عن معونتك ليكن مصيرهما البتر ، مع الرجلين اللتين أحجمتا عن إغاثتك» . وفوق ذلك ، لم أكتف حتى دعوتُ بأن يُصاب بدني كله بالقروح الأليمة . والرأبي عقيبا قال لي : «واهاً لي وويلاً إذ أراك في هذه الحال !» ، لكنني قلتُ له : «بل ليُسعدك أن تراني في هذه الحال ، لأنني من خلالها أرجو أن يُغفر لي ذنبي ويُحى ، وأن تبقى حسناتي في ميزان أعمالِي ، لكي أحوز نعمة الحياة الأبدية في الآخرة» .

\* \* \*

عندما أبصر الرأبي يناي رجلاً يهب الصدقات في مكان عام ، قال : «كان خيراً لك ألا تُعطي على الإطلاق ، من أن تُعطي الصدقات بهذا الشكل العكسي وتعرض الفقراء للذلل والمهانة . فخيرٌ للمرء أن يتلظى في نار موقدة من أن يتسبب في مدّة الناس» .

ويصرّ الرّبانويون ويؤكدون على أن علينا أن نتجنب قصر عمل الصدقة على شعبنا فحسب ، لأن شريعة موشيه تحضّ على الرّق بالغباء المقيمين بين ظهرانينا وإكرامهم . وحتى البهائم لم تُفعل في دستورهِ الفائق الرحمة .

قال الرَّابِّي يهوداه : «لا يجلسن أحدكم إلى طعامه ، حتى يطمئن إلى أن جميع الحيوانات العائدة إلى رعيتِه قد نالت قوتَها» .

وكان الرَّابِّي يُوحَنان قال بإنه يحسُن في نظر الله أن نكون طيبين وكُرماء تجاه الغُرباء ، بالدرجة ذاتها التي يحسُن بها في نظره أن نبتكر في الفجر لدراسة شريعته ، وذلك لأن الخصلة السالفة ليست إلا تطبيقاً محضاً لشريعته . وقال كذلك : «مَن كان رقيقاً بأبناء قومه تُغفر له ذنوبُه» .

وكان كلٌّ من هذا الرَّابِّي والرَّابِّي أباً قالاً بأن من الخير إقراض الفقراء بدلاً من إعطائهم ، لأن ذلك يعصمهم عن الشعور بالمهانة من فقرهم ، وهو بالحق أسلوب معونة لهم أكثر إحساناً . والرَّبَّانيون يُرشدون على الدوام بأن الرفق هو أكبر من مجرد إعطاء الحسَنات ، ذلك بأنه يضمّ كَلِماً طيباً يفوق بكثير قيمة الدَّعم المادي المُجرّد .

### فضيلة التواضع

نجد في الكتاب المقدس عدّة أمثلة على مدى رضا الخالق عن خلقه عندما يتمثلوا فضيلة التواضع وخفض الذات . ولقد كان أسمى أجدادنا شأناً هم أولئك المنزهون بالكليّة عن الغرور والخيلاء .

فأبرهَام ، النقيّ السريرة ، كان يُدرك تماماً أنه لم يك سوى شيء من تُراب الأرض ، ولما خاطبه أبناء حِتّ بلقب «رئيس من الله»<sup>(1)</sup> سجد لهم .

وها هما مُوشيه وأهرُون ، رئيسا شعب يسرائيل ، يقولان : «وما نكون نحن ؟» . وبدلاً من أن تستبدّ الغيرة بمُوشيه عند سماعه بأن رجلين كانا يتنبَّان<sup>(2)</sup> في المخيم ، إذا به يقول بتواضع جَمّ : «يا ليت كلّ شعب الرّب كانوا أنبياء» (سفر العدد - 11 : 29) .

(1) انظر سفر التكوين - 23 : 6 .

(2) هذان هما إلداد وميداد اللذان تنبَّأ أثناء تيه سيناء . انظر سفر العدد - 11 : 26 .

ولما راح داود يكرّس لخدمة الله الأشياء الثمينة التي جمعها لأجل الهيكل ، قال بكل تقوى : «ومن يدك أعطيناك» (أخبار الأيام الأول 29 : 14) .

ومن الله الأزلي العظيم ذاته نتعلم التواضع ، فمن على جبل سيناء اختار تنزيل وصاياه ، وهذا الجبل ليس أعلى الجبال على الإطلاق . وكذلك خاطب موسىه لا من شجرة سامقة بل من شجيرة واطئة . ولما كلم إياهو<sup>(1)</sup> ، جعل الرياح ثور ، والأرض تتزلزل ، والنار تستعر ، أما بالنسبة إليه فقد اختار «صوتاً مُنخفضاً خفيفاً» (سفر الملوك الأول 19 : 12) .

قال الرّابي هونا : «مَنْ كان الغرور يملأ قلبه فهو مُذنب كالوثني» .

وقال أويرا : «مَنْ كان مغروراً فجزاؤه الاتضاع» .

وقال حزقياه : «دُعَاءُ المغرور قاسي القلب وصلاته لا تُسمع» .

وقال الرّابي آشي : «مَنْ يُقسّي قلبه بالغرور ، فإنما يُوهي به عقله» .

وقال الرّابي يهوشوع : «التواضع خير من التّضحية» ، لأنه أليس مكتوباً :

«ذبائح الله هي رُوحٌ مُنكسرةٌ ، القلبُ المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره»<sup>(2)</sup> ؟

### فضيلة تقوى الله

قال ابن الرّابي هونا : «مَنْ كان لديه علمٌ بشريعة الله دون أن يخافه ويتقيه ، فهو كمن أوكلت إليه المفاتيح الدّاخلية لحزنة مال ، دون المفاتيح الخارجية» .

وقال الرّابي ألكسندر : «مَنْ كانت لديه حكمة دنيوية وكان لا يخشى الرّبّ ،

هو كمن ينوي بناء بيت ثم لم يكمل سوى بابه ، لأنه كما كتب داود الملك في المزمور 111 : «رأسُ الحكمة مَخافةُ الرّبّ» .

(1) النبي إياهو يُدعى أيضاً : «إيلياً» ، وهو في التّراث الإسلامي : «إلياس» عليه السلام ، بالصيغة اليونانية للاسم : Elias . ونذكر دوماً أن مردّ ذلك أن التوراه الشائعة في عصر تنزيل القرآن الكريم كانت باليونانية حصراً ، أي التّرجمة السبعينية السكندرية .

(2) سفر المزامير - 51 : 17 .

عندما كان الرَّابِّي يُوحَنان<sup>(1)</sup> مريضاً ، زاره تلاميذه وطلبوا منه مُباركته . فقال الرَّابِّي بصوته المُحتضر : «أدعوا لكم بأن تخافوا الله كما تخافون البشر» . فقال التلاميذ : «مه ! ألا يجدر بنا أن نخاف الله أكثر من البشر؟» .

أجاب الحكيم : «إنه لمن دواعي سروري أن أرى أعمالكم تدلّ على أنكم تخافون الله بهذا المقدار حقاً . فعندما تأتون شيئاً إمرأ فإنكم تتحرّون ألا تكون عين بشر قد اطلعت عليكم ، إذا فعليكم أن تتحرّوا الأمر عينه وتخشوا الله الذي يطلع على كل شيء ، وفي كل مكان ، وفي كل زمان» .

ويقول أبا إن بإمكاننا إظهار مدى خشيتنا لله من خلال معاملاتنا بين بعضنا . فيقول : «فلتخاطبوا النَّاس باللين والرفق ، واعملوا على قمع الغضب ، واجنحوا إلى السّلم وتحروّه أينما ثقتموه مع إخوانكم ومع النَّاس أجمعين ، وبهذه الوسطة تكسبون تلك «النّعمة والفهم الحسّن في عيني الله والنّاس» ، اللّتين نالهما شلومو بكل جدارة» .

كان الرَّابِّي يُوحَنان سمع الرَّابِّي شمعون بن يُوحاي ، وهو يصوّر على شكل قصّة هذه الآيّة من سفر يشعياهُ : «لأنّي أنا الرّبّ مُحبّ العَدلّ ، مُبغض المُختلس بالظلم»<sup>(2)</sup> .

يُروى أن ملكاً استورد إلى مملكته بضاعة ما ، يضع في العادة عليها رسوماً ، فأمر عمّاله عندما يجتازون بدار المكوس أن يتوقفوا ويدفعوا الرّسوم المُعتادة . فلمّا استبدّت بهم الدهشة ، خاطبه خُدّامه بهذا الكلام : «مولاي ، هذه البضائع كلّها تعود إلى مُلك جلالتك ، فلماذا يتعيّن أن يُدفع عنها ما سيؤول بالنتيجة إلى خزانتكم؟» .

أجاب الملك : «هذا لأنني أودّ حمل التجّار المسافرين على أن يتعلّموا من وراء العمل الذي أمركم الآن بتنفيذه كمْ أن الكذب والمخادعة خصلتان مقيّتان مبغوضتان في عيني» .

(1) أي الرَّابِّي يُوحَنان بن زكّاي ، مؤسس مركز السّنّهدين في يَنسَ بعد خراب الهيكل 70 م .

(2) سفر يشعياهُ - 61 : 8 .

فكذلك هو الأمر فيما يخصّ معاملة الله العظيم لنا ، على اعتبارنا كحُجّاج زائرون في هذه الحياة الدّنيا . فرُغم أن كل ما نملك يعود بالأصل إليه ، فهو يزيدُه ويُثمره باستمرار ، بغيّة زيادة سعادتنا الدّنيوية المؤقتة . ولذا فإنّ تصوّر أحدّ ما أن من الممكن خداع النّاس بغيّة تقديم الهبات لله ، بما هو حصراً له ، يكون مصيره التّقرّيع في نصّ الكتب المقدّسة ، حيث أن الله العادل يُدين هذا الفعل ، ويعدّه شائناً .

من خلال ذلك نستطيع أن نستنتج مثلاً ، أن سُفّ النّخل المسروقة لأجل استعمالها في تنفيذ الشّعائر المنصوص عليها في عيد «سُكّوت» (المُظال)<sup>(1)</sup> ، هي غير مُلائمة للاستعمال شرعاً ، بسبب الطريقة المشبوهة وغير المشروعة التي تمّ عبرها الحصول عليها .

قال الرّابي إليعيزر : «مَن كان الصّلاح والاستقامة يوجّهان أعماله كلّها ، فليكن على يقين بأن يتبع مثال الله في إحسانه الغير محدود . لأننا نقرأ عنه (تبارك اسمه) : «يحبّ العدل والاستقامة»<sup>(2)</sup> ، أي امتلأت الأرض من رحمة الرّب»<sup>(3)</sup> . ولكن هل نظنّ أن أتباع مثل هذا المنهج أمر يسير هيّن ؟ بالطبع لا ! إن فضيلة الإحسان لا يمكن التوصل إليها إلا ببذل جهود عظيمة . ومع ذلك ، فهل يصعب على مَن كان يضع تقوى الله نُصب عينيه أن يحصل على هذه المزيّة ؟ لا ، بل يمكن تحصيلها بيسر لمن كانت أعماله كلّها تنبع عن تقوى الله ومخافته .

«الشّيبة تاجُ نعمة ، مادامت على طريق الرّب»<sup>(4)</sup> . هكذا علّمنا شلومو في أمثاله . ومن خلال ذلك ، كان عدّة ربّانيين طعنوا في السّنّ قد سألهم تلامذتهم عن السبب المحتمل الذي نالوا بموجبه هذه البُشرى على الكرامة الإلهيّة . فأجاب الرّابي نحوماه حول ذلك بما يخصّ نفسه ، بأن الله قد أنعم عليه بإدراك ثلاثة مبادئ ، تمثّلها وجهه في السّير عليها لإصلاح شأنه .

(1) سيرد ذكر هذا العيد في آخر الكتاب .

(2) سفر المزامير - 11 : 7 .

(3) سفر المزامير - 33 : 5 .

(4) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك - 16 : 31 .

فأولها : أنه لم يعمد البتة إلى رفع مقامه على حساب اتضاع جيرانه . وهذا الأمر مُستحسن وفق المثال الذي وضعه الرّابي هونا ، لأن هذا الأخير حينما كان يحمل على كاهله مجرافاً ثقيلاً ، صادفه الرّابي حوانا بن حنيلاي ، فلما شعر بالعبء المُضني والحاطّ من شأن هذا الرّجل الرّفيح القدر ، أصرّ على مساعدته في حمل الآلة لتخليصه من عبثها . غير أن الرّابي هونا رفض ذلك قائلاً : «لو كانت هذه صنعتك الأساسية لربما تركتك تفعل ، ولكنني بالتأكيد سوف لن أدع أحداً يقوم بأمر ، إن قمتُ أنا به بنفسي قد يُنظر إليه على أنه وضعي» .

وثانيها : أنه لم يأوِ البتة إلى نوم ليله وفي قلبه أيّ حقد على أحد ، على نحو العادة التي يتخذها مار سَطرا ، الذي يتلو الدّعاء التالي قبل نومه : «يارب اغفر لمن أساء إليّ !» .

وثالثها : أنه ما كان بخيلاً ، بل يقتدي مثال أيوب الصّالح ، الذي يروي الحكماء عنه أنه كان يرفض أخذ ما يتبقى له من مال حينما يبتاع شيئاً .

وثمة رابي آخر ، اسمه أيضاً نحوماه ، أجاب الرّابي عقيبا بأنه يظنّ نفسه قد أنعم عليه بحياة مديدة لأنه في خلال وظيفته الرّسميّة قد وضع نُصب عينيه عدم قبول الهدايا ، متمثلاً في ذلك ما كتبه شلومو : «ومن يكره الهدايا يعيش»<sup>(1)</sup> . ومن مزاياه الأخرى برأيه عدم تحامله على مَنْ يسيء إليه ، متمثلاً بكلام رابّا : «مَنْ كان مُتسامحاً حيال عثرات النّاس ، عامله الدّيّان الأكبر بالرّأفة» .

وقال الرّابي زيرا إن نعمة بلوغ سنّ الشيخوخة بالنّسبة إليه ، بفضل الله ، هي نتيجة سلوكه في حياته . فلقد كان يعامل أهل بيته بالرّأفة والرّفق ، وكان يُمسك عن تقديم رأيه على مَنْ يفوقه بالحكمة ، وكان يتجنّب ترديد كلام الله في الأماكن غير المنزهة عن النّجاسة . وكان يشتمل بالتفليّن طوال النّهار ، ليتذكّر على الدوام واجباته الدّيّنيّة . ولم يكن يتخذ المدرسة ، حيث تُدرّس العلوم المقدّسة ، مكان راحة للنوم مثلاً ، لا بشكل عارض ولا مُعتاد . وهو لم يتهج قطّ بموت أحد ، ولم يُسمّ أحداً باسم يعافه هو أو آله الذين ينتمي إليهم .

(1) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك - 15 : 27 .

## فريضة إكرام الأبوين

يضع الكتاب المقدس الأبوين بمنزلة موازية لمنزلة الله العليّ ، من حيث الاحترام والتكريم . وتنصّ الوصايا العشر على مبدأ : «أكرم أباك وأمك» ، كما جاء أيضاً في متن الكتاب : «أكرم الله من مالك» . وكذلك فإن «فخّف الآن من أهلك» ، و«تخافوا الربّ إلهكم» هما من الوصايا الإلهية ، بينما نرى أن جزاء الابن العاق الذي يبادر بالخطيئة إما إلى أبويه الأرضيين أو تجاه الأب الأعظم للكون هو الجزاء عينه ، تماماً كما هو مكتوب : «مَنْ يلعن أباه وأمه فجزاؤه القتل» ، وأيضاً : «كلّ إنسان يجذّف على الله بالباطل يحمل وِزر موته على عاتقه» .

ويقول الرّبانيون : «للإنسان ثلاثة رفاق في حياته : الله ، وأبوه ، وأمه» . والله يقول : «مَنْ يكرم أبويه فقد أكرمني ، كما لو كنت معه مقيمًا» .

قال الرّابي يهودا : «إن طُرُق الإنسان معروفة ومكشوفة . كالأمّ تلاطف طفلاً بالكلمات الرقيقة والأساليب الخنونة ، فتكسب التكريم والمحبة . ولذلك فالكتاب المقدس يقول : «أكرم أباك» ، قبل عبارة «أكرم أمك» . وأما بخصوص الخشية ، فيما أن الأب هو مُلقّن الابن ومَنْ يعلمه الشريعة ، فالكتاب المقدس يقول إذاً : «ليخش كلّ إنسان أمه» ، قبل عبارة «أبيه» .

سُئل الرّابي أولاً مرةً : «فما هو إذاً مدى هذا التكريم الواجب إيلاؤه تجاه الأبوين ؟» .

فأجاب : «اسمعوني فأروي لكم كم تمّ إيلاء هذا الواجب من قِبَل رجل وثني ، هو داماه بن نيتنا . كان الرّجل تاجر جواهر ، فرغب الحاخامون يوماً بابتياح جوهرة منه لأجل الثوب الحبري (الإيفود TISON) الخاصّ بكبير الكهنة . فلمّا وافوا منزله ألفوا مفتاح الخزنة التي يحتفظ فيها داماه بالجوهرة مودعاً مع أبيه ، وكان آنذاك نائماً . ورفض الابن رفضاً قاطعاً إيقاظ أبيه للحصول على الجوهرة ، رغم أن الحاخامين النافدي الصّبر عرضوا عليه فيها ثمناً أعلى بكثير ممّا طلب . وفضلاً عن ذلك ، لمّا أفاق أبوه فسلمهم الجوهرة ونقدوه الثمن الباهظ الذي بذلوه ، اقتطع منه الثمن الأول وردّ البقية قائلاً : «لا أتكسّب على حساب كرامة أبي» .

ليس بمقدور الإنسان دوماً أن يحكم على أعمال الناس ، وحول موضوع إظهار الاحترام تجاه الأبوين من الأبناء ، قد لا يتمكن عامة الناس من فهم حقيقة الأمر . فعلى سبيل المثال ، لربما يقدم بعض الأبناء أطيب الطعام لوالديه ، ومع ذلك يحقّ عليه حكم الابن العاق ، بينما قد يلجئ ابن آخر أباه إلى العمل الشاق ويستحقّ برغم ذلك الثواب . فكيف يكون ذلك ؟

يُحكى أن رجلاً وضع طعاماً لذيذاً أمام أبيه ، وطلب إليه أن يأكل منه . فلما فرغ الأب من طعامه قال : «أي بُنيّ ، قد هيأتَ لي الدّ طعام ، فمن أين نلتَ هذه الأطيب ؟» .

فأجاب الابن بازدراء : «كُل كما تأكل الكلاب أيها العجوز ، وكفّاك تطرح الأسئلة» .

فاستحقّ هذا الابن عقوبة العقوق .

ويُحكى أن رجلاً كان طحّاناً وكان أبوه يُقيم معه ، في فترة كان يُجبر فيها من لا عمل له أن يعمل بضعة أيام لصالح الحكومة . فلما شارف الوقت الذي ينبغي فيه طلب هذه الخدمة من العجوز ، قال له ابنه : «اذهب فاعمل بدلاً عني في الطاحون ، وأنا أمضي لأعمل من أجل الحكومة» .

وكان الابن قال ذلك بسبب أن من كان يعمل لأجل الحكومة كان يتعرّض للضرب إن وُجد عمله غير مُرضٍ ، فراح يفكّر : «خيرٌ لي أن أعرض نفسي لاحتمال الضرب من أن أضع أبي تحت هذا الخطر» . فلذلك ، استحقّ ثواب الابن «الذي يُكرم أباه» .

ويؤكد الرّابي حيّا على أن الله يفضل التّكريم المبذول للأبوين على التّكريم المبذول له شخصياً . ويقول : «مكتوبٌ : «أكرم الرّبّ من مالك» ، فكيف يكون ذلك ؟ عبر بذل الصّدقات ، وفعل الخير ، ووضع الميزوزاه على عضائد بيتك ، وأن تنصب ظلّة لنفسك في عيد السُّكوت ، وما إلى ذلك . وهذا كلّه في حال كنتَ قادراً ، أما إن كنتَ فقيراً فإن الاستنكاف عن ذلك لا يُحتسب عليك بمثابة الذّنْب أو الإهمال . غير أنه مكتوبٌ أيضاً : «أكرم أباك وأمك» ، فهذا الواجب

مفروض على الغني والفقير على حد سواء لزوماً . وحتى إن لزمكم الأمر لتأمين  
أودهما بتعاني الكدية (التسول) من باب إلى باب ، فافعلوا» .

وقال الرَّابِي أَبُوهُ : «قد اتبع وكدي أبيني هذه الوصية كما ينبغي لها حق  
الاتباع» .

كان لأبيني خمسة أبناء ، لكنه لم يكن يسمح لأي منهم بفتح الباب لخدمهم  
أو القيام على حاجاته عندما يكون هو ذاته في البيت . وكما كان يودّ منهم أن  
يكرموا هو في حياتهم ، كان يتعامل بالإكرام مع أبيه . في إحدى المرات طلب منه  
أبوه كأس ماء ، فلماً مضى لإحضارها غلب النوم أباه فغفت عينه ، ولما عاد أبيني  
إلى الغرفة ، بقي واقفاً إلى جانب أبيه والكأس في يده إلى أن أفاق هذا الأخير  
وشرب الماء .

يسأل الرَّبَّانِيُون : «ما هي الخشية؟» و«ما هو الإكرام؟» .

اخشَ أَمَّكْ وَأَبَاكَ ، بعدم الجلوس في مقعديهما وعدم الوقوف في مكانيهما  
وبالانتباه الشديد لكلامهما وعدم مقاطعة حديثهما . وكن مُضاعف الحذر من  
انتقاد أو محاسبة آرائهما وتناقض أفكارهما .

أكرم أباك وأمك بالقيام بحاجاتهما ، بتقديم الطعام والشراب لهما ،  
والبسهما ثيابهما واربط لهما حذائيهما ، في حال كانا عاجزين عن أداء ذلك  
وحدهما .

سُئِلَ الرَّابِي الْبَعِيزَرُ عَنْ مَدَى الْإِكْرَامِ الْوَاجِبِ أَدَاؤُهُ تَجَاهِ الْأَبْوِينِ ، فَأَجَابَ :  
«خيرٌ لك أن تطرح مالك كله في البحر من أن تُغضبهما» .

وقال شمعون بن يوحاي : «كما أن ثواب مَنْ يُكرم أبويه عظيم ، فكذلك  
هو عظيم عقاب مَنْ يهمل هذه الوصية» .

إن كل وصية في الكتاب المقدس تحدّد مدى الثواب الحاصل عن القيام بها ،  
فحول هذه الوصية بالذات يُقال لنا : «لكي تطول أيامك على الأرض» ، ومعنى  
طول الأيام ليس في هذه الدنيا فحسب ، بل وفي الآخرة أيضاً .

## الشريعة ودراستها

«الرَّبّ خلَقني أوَّل طريقه» (سفر الأمثال - 8 : 22) . هذا يعني أن الله خلق الشريعة قبل أن يخلق الدُّنيا . فعدد من الحاخاميم جعلوا حياتهم سوداء كالغُراب الأسحم ، ومعنى ذلك أنهم يقسون على أنفسهم كما تقسو أنثى الغُراب على فراخها ، من خلال الدِّراسة المستمرة ، أثناء اللَّيل وأطراف النَّهار .

قال الرَّابِّي يُوَحَّان : «أفضل الدِّراسة هي التي تتمّ في اللَّيل ، عندما يسود السكون ، كما هو مكتوب : «وباللَّيل تسيحهُ عندي صلاة»<sup>(1)</sup> .

وقال الرَّابِّي لكيش : «ادرسوا في النَّهار وفي اللَّيل ، كما هو مكتوب : «وفي ناموسه يلهجُ نهاراً وليلاً»<sup>(2)</sup> .» .

وقال الرَّابِّي حُونان من مدينة صِفُوري<sup>(3)</sup> لا 1619 : «يمكن لنا تشبيه دراسة الشريعة بكومة كبيرة من التراب ينبغي إزالتها . فالجاهل يقول : «هذا مُحال ! لا طاقة لي بنقل هذه الكومة الهائلة ، لذا سوف لن أبذل جهداً للمحاولة» ، أمّا مَنْ أوتي حكمةً فيقول : «سوف أنقل بعضها اليوم ، والمزيد غداً ، والمزيد بعد غد ، وعلى هذا النحو بمضي الوقت أكون قد نقلتها بكاملها» .

فهكذا هو شأن دراسة الشريعة ، ترى التلميذ الكسول يقول : «يستحيل عليّ أن أدرس الكتاب المقدس . فكم هذا الأمر صعب : خمسون أصحاباً<sup>(4)</sup> في سفر التكوين ، وستة وستون في سفر يشعيا ، ومئة وخمسون مزموراً ، إلخ . إن هذا فوق طاقتي بكثير» . غير أن التلميذ المُجدِّ يقول : «سأدرس ستة أصحابات في كل يوم ، وعلى ذلك تراني بمرور الوقت قد استوفيته بأسره» .

ونجد في سفر الأمثال (24 : 7) هذه العبارة : «الحِكم عالية عن الأحمق» .

(1) سفر المزامير - 42 : 8 .

(2) سفر المزامير - 1 : 2 .

(3) مدينة بالجليل الأعلى (صِفُورية) نافست طبرية كمرکز ديني للجليل ، وصارت مدّة مقرأً للسنّهدرين ، أقام بها يهوداه هتاسي . من أشهر التنايم فيها : يُوَحَّان بن نُوري .

(4) عبارة الأصحاح ترجمة عربية اعتمدها تراجمة التوراه لتسمية فصول الأسفار .

ويصوّر الرّأبي يُوحَنان هذه الآية من الكتاب المقدّس بتفّاحة تتدلى من السّقف . فالأحمق يقول فيها : «ليس بوسعي نيل هذه الثمرة ، فهي عالية جداً» ، أما النّبيه فيقول : «إنه ليتمكن الحصول عليها بوضع درجة فوق أخرى حتى تصير في متناول اليد» . ويقول الأحمق : «وحده النّبيه بوسعه دراسة الشريعة بأكملها» ، فيجيبه النّبيه : «ليس عليك فرضاً لازياً أن تدرسها بأكملها» .

ويصوّر الرّأبي ليثي هذا الأمر بالقصة التالية :

مرّة في الماضي استأجر رجل خادمين ليقوما بملء سلّة بالماء . فقال أحدهما : «لماذا عليّ أن أتابع هذا العمل غير المُجدي ؟ فما إن أصبّ الماء في الجهة الواحدة حتى يتسرّب في الجهة الأخرى ، ما هو جدوى ذلك ونفعه ؟» .

أما العامل الآخر ، الذي كان حكيماً ، فقال : «إن جدواه ونفعه يكمنان في المكافأة التي نلتّها على عملنا فيه» .

فهكذا هو شأن دراسة الشريعة . قال بعضهم : «ماذا تنفعني دراسة الشريعة طالما أن عليّ دوام المتابعة فيها وإلا نسيت ما تعلّمت ؟» ، غير أن آخر أجاب : «الله يُجزينا بالإحسان على نيّتنا التي في قلبنا ، حتى وإن كنا ننسى» .

وكان الرّأبي زعيراً قال إن أي حرف من كلمات الشريعة قد لا نأبه له ، يكون من شأنه في حال نقصه إبطال الشريعة بأسرها . ففي سفر تثنية الاشتراع نقرأ (17) : (16) : «ولا يُكثّر له نساءً لئلا يزيغ قلبه» . ولقد انتهك شلومو هذه الوصية ، وقال الرّأبي شمعون إن الملائكة قد رأّت فعلته الضالّة فخاطبت الذات الإلهية قائلة : «يا مالك الكون ، إن شلومو قد جعل من شريعتك كمثّل قانون معرّض للتّحريف والنقص . فلقد انتهك ثلاث وصايا ، هي بالتحديد : «لا يُكثّر له الخيل» ؛ «ولا يُكثّر له نساء» ؛ «وفضةً وذهباً لا يُكثّر له كثيراً» . فعندها أجاب الرّبّ : «إن شلومو هالك لا محالة من على وجه الأرض ، هو ومئة شلومو آخريأتون بعده ، وبرغم ذلك فإن أدنى حروف الشريعة لا يحول ولا يزول» .

\* \* \*

كان من عادة الرّبانين مراراً أن يستشهدوا ، بأسلوب المعنى المجازي ، بعدة مقاطع من متن الكتاب المقدّس ، ومن بينها افتتاحيّة الأصحاح الخامس والخمسين من سفر يشعياهُ : «أيّها العطاش جميعاً هلمّوا إلى المياه ، والذي ليس له فضّة تعالوا اشترُوا وكُلُوا ، هلمّوا اشترُوا بلا فضّة وبلا ثمن خمرأً ولبنأً» .

فهذه الأشربة الثلاثة ، التي يُدعى النَّاس إلى الحصول عليها بهذا النَّحو ، تُعدّ لدى حاخامات بني يسرئيل ممثّلة للشريعة .

سأل أحد الرّبانين : «لماذا يُشبّه كون الله بالماء ؟» .

على هذا السّؤال تمّ تقديم الجواب التالي : «كما أن الماء يجري من الأعلى (أي الجبل) ، ليصير إلى مكان مُنخفض (البحر) ، فهكذا هو شأن الشريعة ، إذ أنّها يُوحى بها من علياء السّماء ، ولا يمكن استحواذها إلا لمن كانت نفسه سَمحةً مُتواضعة» .

وسأل رابي آخر : «لماذا رُبّطت كلمة الله بالخمر واللبن ؟» . فكان الجواب عليه : «بما أن هذه الأشربة لا يمكن حفظها في أوان ذهبية ، بل حصراً في أوان من الفخار ، فكذلك إن هذه العقول هي خير الأوعية والمكامن لعلوم الشريعة ، وهي العقول التي توجد عادةً في الأجساد البسيطة غير المتكلّفة» .

لذا ، على سبيل المثال ، فإن الرّابي يهوشوع بن حنّيناه ، الذي كان بسيطاً للغاية في مظهره ، حاز على حكمة ومعرفة عظيمنتين ، وكان من بين الكلمات المفضّلة لديه هذه : «رغم أن الكثيرين قد أظهروا مقداراً عظيماً من المعرفة ، بغضّ النَّظر عن فتنّتهم الشّخصيّة ، فلعلّهم لو كانوا أقلّ وسامةً ربما بلغ تحصيلهم العلمي شأواً أبلغ وأبعد» .

وثمة سبب آخر لتشبيه كلمة الله بالأشربة المذكورة آنفاً ، وهي أنّها بحاجة إلى رعاية وانتباه ، لئلا تُهْرَق أو يصبّ عليها الفساد ، فعلى النَّحو ذاته نرى أن معرفتنا بالكتاب المقدّس والتّراث الشفهي تحتاج إلى رعاية دائمة ، لئلا تُضيع .



كما وتُشَبَّه الوصايا بمصباح ، وتُشَبَّه شريعة الله بالنور . فنرى أن المصباح يفيض بالضوء طالما كان فيه زيت وحسب ، وكذلك فإن من يلتزم بالوصايا يتلقَى ثوابه أثناء أداء هذه الوصايا . وأما الشريعة فهي نُور دائم مُستديم لا ينقطع ، وهي حُرُزٌ وحِصْنٌ دائمَانِ لِمَنْ يتدارسها ، كما هو مكتوب :

«إِذَا ذَهَبَ [فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ] تَهْدِيكَ ، إِذَا نَمَتَ تَحْرُسُكَ ، وَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَهِيَ تُحَدِّثُكَ»<sup>(1)</sup> .

وتأويل ذلك يكون على النحو التالي : إِذَا ذَهَبَ تَهْدِيكَ (أي في هذه الحياة الدُّنْيَا) ؛ إِذَا نَمَتَ تَحْرُسُكَ (أي في القبر)<sup>(2)</sup> ؛ وَإِذَا اسْتَيْقَظْتَ فَهِيَ تُحَدِّثُكَ (أي في الحياة الآخرة) .

يُحْكِي أَنْ مُسَافِرًا اجْتَازَ فِي رِحْلَتِهِ بَغَابَةَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلَمَةٍ مُوحِشَةٍ ، فَكَانَ يَسِيرُ بِوَجَلٍّ شَدِيدٍ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ قِطَاعِ الطَّرِيقِ الَّذِينَ كَانُوا يَجُوسُونَ الدَّرْبَ الَّذِي يَجْتَازُهُ ، كَمَا كَانَ يَخْشَى مِنْ أَنْ تَزَلَّ بِهِ قَدَمُهُ فَيَسْقُطَ فِي حُفْرَةٍ أَوْ شَفِيرٍ لَا يَظْهَرَانِ لِلْعَيَانِ فِي طَرِيقِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَخْشَى مِنَ الْوَحُوشِ الْمَفْتَرَسَةِ الَّتِي كَانَ يَعْرِفُ بِأَنَّهَا تَحْمُومُ حَوْلَهُ . وَبِطَرِيقِ الْمُصَادَفَةِ ، عَثَرَ الرَّجُلَ عَلَى مَشْعَلٍ مِنْ خَشَبِ الصَّنُوبَرِ ، فَأَشْعَلَهُ ، فَوَفَّرَ لَهُ ضِيَاؤُهُ ارْتِيَاحًا كَبِيرًا . وَهَكَذَا لَمْ يَعُدْ يَخْشَى مَخَاطِرَ الْوُقُوعِ فِي أَشْوَاكِ الْعَوْسَجِ أَوْ تَزَلُّ بِه قَدَمُهُ فِي هَاوِيَةِ مَا ، لَمَّا صَارَ بُوَسْعِهِ أَنْ يَرَى أَمَامَهُ . غَيْرَ أَنْ فَرَّعَهُ مِنْ قِطَاعِ الطَّرِيقِ وَمِنَ الْوَحُوشِ بَقِي يُوْرِقُهُ وَلَمْ يُبَارِحْهُ إِلَى أَنْ انبَلَجَ الْفَجْرُ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ غَيْرَ وَاثِقٍ مِنْ اتِّجَاهِهِ إِلَى أَنْ خَرَجَ مِنَ الْغَابَةِ وَيَبْلُغُ مَقْتَرِقِ الطَّرِيقِ ، فَعَاوَدَهُ إِذْ ذَاكَ الْإِطْمِئْنَانُ .

(1) سفر الأمثال - 6 : 22 .

(2) في فقه الشريعة اليهودية ما يُعرف بعذاب القبر (في العبرية : חבולת הקבר جِبُولُ هَبَّير) كما هو الحال في العقيدة الإسلامية . وهنا نجد الكثير من تداخلات أحاديث عذاب القبر وأشراط قيام الساعة ، في التراث الشفهي المتحتم على الحديث الشريف . ومصدر هذه الرويات كلها (المتعارف عليها بالإسرائيليات) هو حتماً من أجداه المدراشيم والتلمود ، وجُلُّ ما دخل منها التراث الإسلامي كان عن طريق 3 شخصيات يهودية دخلت الإسلام بعيد عهد الرسول ﷺ لتبث فيه ما ليس منه : كعب الأخبار (كعب بن ماتع الحميري من يهود اليمن) ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام .

فأما الظلمة التي كان الرَّجُل يسير فيها ، فهي كناية عن نقص المعرفة الدِّينية .  
وأما المشعل الذي عثر عليه فهو يمثل وصايا الله ، التي أرشدته إلى سواء السَّبيل  
حتى بلغ نعمة ضياء الشمس ، التي تمثل بدورها كلمة الله المقدَّسة ، أي كتابه .  
ويرغم ذلك ، طالما كان الرَّجُل ما يزال في الغابة (أي الحياة الدُّنيا) ، لم يكن ينعم  
تماماً براحة البال ، فبقي قلبه معتلاً ضعيفاً ، وكان عُرضَةً للضَّلَال عن الطريق  
القويم . لكنه عندما يبلغ مُفترق الطُّرُق (أي الموت) ، يكون بوسعنا أن نعدّه  
رجلاً صالحاً بالحق ، ونبيري قائلين<sup>(1)</sup> :

«الصَّيْتُ خَيْرٌ مِنَ الدَّهْن الطَّيِّب ، ويوم الممات خَيْرٌ من يوم الولادة»<sup>(2)</sup> .

\* \* \*

قام الرَّابِي يُوحَنان بن بَرُوقا والرَّابِي إليعيزر بن حِسْمًا بزيارة معلّمهما ،  
الرَّابِي يُوساه ، فقال لهما :

«ما هي أخبار المدرسة ؟ وماذا يجري فيها ؟» .

فأجابا : «لا كلام لنا ونحن تلميذاك ، فأنت مَنْ يتكلّم وما علينا نحن إلا  
الإصغاء» .

أجاب الرَّابِي يُوساه : «بغض النظر عن ذلك ، لا يمضي يوم بغير حصول  
أمر ذي شأن في المدرسة . فمَنْ كان يُحاضر فيكم اليوم ؟» .

أجابا : «الرَّابِي إليعيزر بن عازورياه» .

«فما كان موضوع بحثه ؟» .

(1) هنا مثال حيّ على أسلوب الجدلية الماورائية الغيبية التي ينتهجها أكثر شُرَاح التِّراث القديم  
في تقديم الخطاب الدِّيني ، بمحاولة الرِّبط التلقائي بين واقع الحياة ومتون الدِّين ، مُعتبرين  
أن ما يفسِّرونه إنما هو الخلاصة الواقية في توافق علوم العقل والنقل . ولا ريب أننا اليوم  
في مطلع القرن الحادي والعشرين بتنا بحاجة مُلحة إلى خطاب ديني عصري مُستتير أكثر  
انسجاماً مع ثورة المعلومات ، لي طرح حلولاً جادة لمشاكل الإنسان والمجتمع ، لأن يكون  
مجرد قناع لتمرير مصالح «الديوك الرومية» وأحلافهم من أهل الحكم والبرنس .

(2) سفر قهليلت (الجامعة) - 7 : 1 .

أجاب أحدهما : «قد اختار هذه الآية من سفر التثنية<sup>(1)</sup> : «تجمع الشعب جميعاً ، الرجال والنساء والأطفال» ، وشرَحَها على النحو التالي :

«الرجال يأتون للتعلّم ، والنساء للاستماع ، فلماذا الأطفال ؟ لكي ينال من يحضرهم ثواباً على تعويد أبنائهم على مخافة الربّ» .

«وشرح آية من سفر قهلت (الجامعة) : «كلام الحكماء كالمناسيس وكأوتاد منغرفة [هي كلمات] أرباب الجماعات ، قد أعطيت من راع واحد»<sup>(2)</sup> .

«فقال : «لماذا يُشبه كلام الحكماء بالمناسيس (المهاميز) ؟» . هذا لأن المنخس يُجبر الثور على شقّ الثلم مستقيماً ، والثلم القويم يطرح غذاءً وافرأ لحياة الإنسان . فهكذا هي شريعة الله تُبقي قلب الإنسان قوياً ، لكي يُنتج عملاً صالحاً يبقى لحياته الأبدية . ولكن لثلاث تقول : «فإن كان المنخس قابلاً للتحرّيك ، للزم أن يكون ذلك شأن الشريعة» ، يرد أيضاً في متن الكتاب : «كأوتاد» ، وكذلك «كأوتاد منغرفة» ، لثلاث يخطر لك مسألة أن الأوتاد المدقوقة في الخشب تتلاشى عن النظر في كل ضربة تدقّها ، وأنه بالتالي من خلال هذا التشبيه يمكن اعتبار شريعة الله عرضة للتلاشي أيضاً . كلا ، بل هي كوتد مُثبت أو مغروس ، كما هي الشجرة المغروسة لتطرح ثماراً وتنتج وفرة» .

«وأما «أرباب الجماعات» فهم من يتجمعون معاً لدراسة الشريعة . ومراراً ما تنشأ الجدالات الخلافية بينهم ، فرمما تقول في نفسك : «بين حشد هذه الآراء المختلفة كيف لي أن أركن إلى دراسة للشريعة ؟» ، فالجواب مكتوب في متن الأسفار المقدسة : «قد أعطيت من راع واحد» . فمن إله واحد أوحيت الشرائع كلها . لذا فعليك أن تجعل أذنيك كما المنخل ، وأن توطئ قلبك لتحصيل هذه الكلمات بأجمعها» .

فقال الربّاي يُواش : «طوبى لجحيلٍ تعلّم على يديّ الربّاي إليعيزر» .

\* \* \*

(1) لم يتبين لنا نصّها في سفر التثنية ، فترجمناها كما جاءت في النصّ أماننا .

(2) سفر الجامعة - 11 : 12 .

عبر حاخامو المجمع الديني في يَبْنَه<sup>(1)</sup> «בבנה» عن احترامهم للبشر بأسرهم ،  
سواءً أكانوا من علماء الشريعة أو من الجهّال ، على هذا النحو :

«أنا مخلوق من عباد الله وكذلك هو جاري ، قد يميل هو إلى الفلاحة في  
الحقل ، وأفضل أنا حرفة في المدينة . أقوم في الصباح الباكر لمصالحى الشخصية ،  
ويقوم هو باكراً لتدبير مصالحه الخاصة . وطالما كان غير راغب بانتهاك حقوقي ،  
فعليّ أن أحرص على عدم القيام بما من شأنه الإضرار بمصالحه . هل يمكنني أن  
أتخيّل أنني أقرب إلى الله إن كانت مهنتي تدعو إلى تحفيز مسألة تعلّم الشريعة ،  
فيما كانت مهنته ليست بذاك ؟ كلا ، فسيان ما نجزه من عمل صالح ، كبيراً كان  
ذلك أم صغيراً ، يجازينا الله بالثواب بحسب ما لنا من صالح النيات» .

ويقدّم أبيّته هذه النصيحة الأثيرة لديه :

« . . . وليكن أيضاً لئن الأخلاق ميّالاً إلى إحلال مشاعر الودّ والتّراحم بين  
النّاس ، فإن فعل ذلك يكسب لنفسه محبة كل من الخالق والخليقة» .

وكان الرّابي راباً دوماً يقول إن حيازة الحكمة ومعرفة الشريعة تؤدّيان  
بالضرورة إلى التوبة والمبادرة إلى صالح الأعمال . ويقول : «لأنه لا جدوى من  
تحصيل معرفة عظيمة والتبحر في شرائع التوراه والتلمود ، ثم التصرف بغير احترام  
تجاه الأبوين ، أو تجاه من كانوا أكبر بالسّن أو بالمستوى العلمي» .

«رأس الحكمة مخافة الرّبّ ، والفطن هو من يمثل لأوامر الله»<sup>(2)</sup> .

وقال راباً : «الكتاب المقدّس لا يُنبئنا بأن دراسة أوامر الله هي ما يدلّ على  
حسن الفهم ، بل إن تنفيذها هو الأصل . لكن علينا أن نتعلّم قبل أن نكون أهلاً  
للتطبيق ، ومن يفعل في حياته خلاف تعاليم الله العليّ خيرٌ له لو لم يولد» .

\* \* \*

(1) يَبْنَه (يقفه بالإشكنازية) أو يُبني جنوبي يافا واللدّ ، اشتهرت بمجمعها الديني اليهودي بعد  
خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها يورحان بن زكاي مركزاً للسنهدرين ، كما أقام جمليل  
بشيفا כרם ביבנה . دعاها الرومان يامنيا Jamnia ، والصليبيون إيبلان Ibelin .

(2) مزامير داود - 111 : 10 .

«الرجل الحكيم يبدو في أدنى فعالة عظيماً ، والأحمق يظهر في أعظم فعالة وضيعاً» .

سأل تلميذ يوماً معلمه : «ما هي عين الحكمة ؟» ، فأجاب المعلم : «هي أن تحكم على الأمور بعقل متحرر ، وأن تفكر بذهن صافٍ ، وأن تحب جارك» . وأجاب معلم آخر : «نهاية الحكمة أن تعرف ذاتك» .

«إياك والغرور وغلبة التيه الناجمين عن رتبة التعلّم ، وروّض لسانك على نُطق عبارة : «لا أدري»<sup>(1)</sup>» .

إن كرّس امرؤ ما نفسه للدراسة ، وأصبح عليماً بما تقرّبه أعين معلميه وقلوبهم ، وبقي برغم ذلك متواضعاً عند تبادل الحديث مع الناس الأقل ذكاءً ، وأميناً في معاملاته ، وصادقاً في أعماله اليومية ، فإن الناس يقولون في حقّه : «طوبى للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وطوبى للمعلمين الذين ثقفوه على دروب الحقّ ، فما أجمل طرقة ، وما أحقّ أعماله بالتقدير ! ألا عن أمثاله ينصّ الكتاب المقدّس بالقول : «قال لي : أما أنت يا يسرئيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته !»<sup>(2)</sup>» .

ولكن إن كرّس امرؤ ما نفسه للدراسة ، وأضحى عليماً ، فازدري مَنْ كانوا أدنى منه ثقافة وعلماً ، وكان غير أمين في تعاملاته مع أقرانه ، فالتاس في حقّه يقولون : بؤساً للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وبؤساً لمن ثقفه ، فكم هو مستهجن سلوكه ، وكم هي طرقة كريهة مججوجة ! ألا عن مثل هذا تنصّ التوراه بالقول : «بادت الأمم من أرضه»<sup>(3)</sup> .

\* \* \*

(1) لهذه المقولات أشباه في أدبنا العربي بصدر الإسلام ، كما في مجاميع الجاحظ الأدبية : «مَنْ حاز «لا أدري» حاز نصف العلم» ، وأيضاً : «يظّل الإنسان عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظنّ أنه علّم فقد جهل» .

(2) سفر يشعيا - 41 : 8 .

(3) سفر المزمير - 10 : 16 .

عندما تقف النفوس قبالة كرسي الحكم الذي لله ، يُسأل الفقراء والأغنياء  
والفسّاق ، كلاً على حدة ، عن عُذرهم في عدم دراستهم للشريعة . فإن تعلّل  
الفقير بفقره يتمّ تذكيره بهليل<sup>(1)</sup> ، فرغم أن تحصيل هليل المالي كان ضئيلاً فهو كان  
يُنفق نصفه ليدفع رسم الدخول إلى المدرسة .

وعندما يُسأل الغنيّ ، فيجيب بأن شؤون تجارته و ثروته قد ألتهته عن تحصيل  
العلم ، يُجاب بأن الرأبيّ اليعيزر كان يملك ألف حُرْج وألف سفينة ، ومع ذلك  
تخلّى عن متّع الثروة كلّها ، وراح يرحل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن مسالك  
الشريعة وتفسيرها .

وعندما يتحجج الفاسق بأن الشهوات قد أغوته وحرفته صوب طريق  
الرذيلة ، يُسأل إن كانت الغواية التي تعرّض لها أكثر مما تعرّض له يُوسيف ، أو إن  
كان امتحن بشكل أشدّ وأبلغ ، في السراء والضراء .

ولكن برغم أننا مأمورون بدراسة شريعة الله ، علينا ألا نجعل منها عبئاً ثقيلاً  
ولا أن نهمل في سبيل الدّراسة أي واجب أو ساعة ترفيه مشروع . سأل تلميذ في  
إحدى المرّات : «لماذا تُعدّ عبارة «والحنطة تجمعها في وقتها»<sup>(2)</sup> واحدة من وصايا  
التّوراه ؟ أليس جمع الناس لمحصلهم من الحنطة أو ان نُضجها أمراً بديهياً ؟ وعلى  
ذلك تكون الوصيّة غير ذات جدوى» .

فأجاب الرّبانيّون : «ليس الأمر بذلك ، فلربّما كانت هذه الحنطة تعود إلى  
رجل أهمل عمله من أجل الدّراسة . إن العمل مقدّس ومكرمّ في عيني الله ، فهو  
لا يشاء بأن يُحجم الرّجال عن أداء واجباتهم اليوميّة ، حتى وإن كان ذلك من  
أجل دراسة شريعته» .

\* \* \*

(1) تقدّم ذكر هليل هتاسي في هذا الفصل ، ص 239 ، فليُنظر .

(2) راجع ما يشابه ذلك في سفر راعوت ، الأصحاح الثاني .

## فريضة الصلاة

احمد الله على النعماء كما تحمده على الضراء . وعندما تسمع بوفاة أحدا ما  
فقل : «تبارك الديان العادل» .

الدعاء والصلاة هي السلاح الوحيد لبني إسرائيل ، وهو سلاح توارثوه عن  
آبائهم ، سلاح مُجرب في آلاف المعارك . وحتى لما تكون أبواب الدعاء مُوصدة في  
السما ، فإن أبواب الدُموع تبقى مفتوحة .

فقرأ (في سفر الخروج - 17 : 11) أنه في الحرب مع عماليق ، عندما كان  
مُوشيه يرفع يده يغلب إسرائيل . فهل كان ليد مُوشيه تأثير على الحرب ، للبدء بها  
أو إيقافها ؟ لا ، وإنما حينما كان بنو إسرائيل يشخصون بأبصارهم للأعلى بقلوب  
كسيرة إلى الآب الأكبر في السما ، لم يكن يتسنى لأي مكروه أن ينال منهم .

«فصنع مُوشيه حية من نُحاس ووضعها على الراية ، فكان متى لدغت حية  
إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيى» (سفر العدد - 21 : 9) .

فهل كان لحية النحاس القُدرة على القتل أو على منح الحياة ؟ لا ، بل  
حينما كان بنو إسرائيل يرفعون أبصارهم إلى الآب الأكبر في السما ، كان هو  
يمنحهم الحياة .

يسأل الأنبياء : «هل يستمتع الله بلحوم الأضاحي ودمائها؟» .

لا ، فهو لم يقيدهم بالأوامر بقدر ما كان يهبهم من النِّفحات . إذ يقول :  
«لأنفسكم وليس لي ما تقدّمون» .

كان لبعض الملوك ابنٌ ، ألفاه يعمه يومياً في القصف والعريضة مع رفاق  
السوء ، ولا يأكل ولا ويشرب إلا معهم . فقال الملك : «كُل على خواني ، كُل  
واشرب يا بُني كما يحلو لك ، ولكن ليكن ذلك على خواني وليس مع رفاق  
السوء» .

كان الناس يحبون تقديم القرابين ، وكانوا يقدمون أضاحيهم لآلهة غريبة ،  
لذا قال الله لهم : «إذا ضحيتم ، فأحضروا قرابينكم هذه إليّ» .

ينصّ الكتاب المقدّس بأن العبد العبري الذي يحبّ عبوديته تُخرز أذنه على ساكفة الباب<sup>(1)</sup> ، فلماذا ؟

لأن هذه الأذن سمعت من جبل سيناء هذه الكلمات : «لأنهم عبيدي ، لا يُباعون بيع العبيد»<sup>(2)</sup> . عبيدي ، وليس عبيد عبيدي ، لذلك فاخرز أذن مَنْ يحبّ عبوديته ويرفض الحرّية الممنوحة إليه .

إن مَنْ يقدّم قرباناً كاملاً يُجازى عليه بأعطية كاملة ، ومَنْ يقدّم قربان محرقة ينال جزءاً قربان المحرقة ، غير أن مَنْ يُخضع نفسه ويتواضع لله وللبشر ينال ثواباً عظيماً كما لو أنه قدّم قرابين الدنيا كلّها .

\* \* \*

إن إله أبرهّام يكون في عون مَنْ يُحدّد مكاناً معيّنًا للصلاة للربّ .

قال الرّابي هينا : «عندما يموت مثل هذا الرّجل يقولون في حقّه : «قدمت رجل تقيّ ومتواضع ، كان يتبع مثال أبينا أبرهّام» .

فكيف لنا أن نعرف أن أبرهّام قد حدّد مكاناً معيّنًا للصلاة ؟

«وبكر أبرهّام في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرّبّ»<sup>(3)</sup> .

قال الرّابي جلبو : «علينا ألاّ نتعجّل عندما نكون على وشك مغادرة مكان للعبادة» .

وقال الرّابي أبييه : «هذا فيما يتعلّق بمغادرة مكان للعبادة ، لكن علينا قطعياً أن نُسارع عندما نتوجّه إلى مثل هذا المكان ، كما هو مكتوب : «لنعرف فلنتبّع لنعرف الرّبّ»<sup>(4)</sup> .

(1) انظر حول ذلك ما يرد في سفر التثنية - 15 : 16-17 : «ولكن إذا قال لك لا أخرج من عندك ، لأنه قد أحبّك وبيتك ، إذ كان له خيرٌ عندك \* فخذ المخرز واجعله في أذنه وفي

الباّب ، يكون لك عبداً مؤبداً ، وهكذا تفعل لأمتك أيضاً» .

(2) سفر اللّيويين - 25 : 42 .

(3) سفر التكوين - 19 : 27 .

(4) سفر هوشيع - 6 : 3 .

وقال الرَّابِّي زَيْدٌ : «عندما كنتُ أبصر الرِّبَّانِيَّين يَخْفَوْنَ إلى المَحَاضِرَة وهم يرغبون بالحصول على مقاعد مناسبة ، كنتُ أفكِّر في نفسي : «إنهم لينتهكوا بذلك حرمة يوم شَبَّات» ، غير أنني عندما سمعتُ الرَّابِّي طَرْفون يقول : «على المرء أن يُسارع دوماً إلى تطبيق وصايا الله» حتى في يوم شَبَّات ، كما هو مكتوب : «وراء الرَّبِّ يمشون ، كأسدٍ يزمجر»<sup>(1)</sup> ، سارعتُ أنا أيضاً لأبكر في الحضور إلى المدرسة» .

وهذا المكان الذي تكون فيها صلاتنا إلى الله أبلغ وأدنى إلى قبوله هو بيته ، كما هو مكتوب :

«لتسمع الصَّلَاة التي يصلِّيها عبدك أمامك في هذا الموضع»<sup>(2)</sup> ، إشارة إلى إقامة الصَّلَاة في بيت الله .

وقال راببن بن عاداه : «ما مصدر السَّنَد على العُرف الشَّفاهي بأنه متى اجتمع عشرة رجال للصَّلَاة في بيت الله ، تنزلت عليهم الذَّات الإلهية ؟

«في متن الكتاب المقدس مكتوب : «الله قائمٌ في مَجْمَعِ الله»<sup>(3)</sup> . وحول مسألة شرط كون عدد «الجماعة»<sup>(4)</sup> (أو حشد المُصلِّين) ينبغي ألا يقلَّ عن عشرة رجال ، فتبينها من خلال كلام الله إلى مُوشيه بخصوص الجواسيس الذين تم إرسالهم لاستطلاع أرض كنعان<sup>(5)</sup> . فلقد قال : «حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة ؟»<sup>(6)</sup> . هذا ولقد كان عدد الجواسيس يبلغ اثني عشر رجلاً ، ولكن لما كان يهوشوع وكالب صادقين ومؤمنين ، فإن عدد «الجماعة الشريرة» اقتصر بالتالي على عشرة أنفار» .

(1) سفر هُوشيع - 11 : 10 .

(2) سفر الملوك الأول - 8 : 29 ، من صلاة شلومو الاحتفالية بتدشين الهيكل .

(3) مزمو لآساف ، سفر الزمير - 82 : 1 .

(4) مصطلح الجماعة في العبرية : ٦٦٦ (عيداه) ، والمفهوم موجود في فقه العبادات الإسلامية حول شرط قيام صلاة الجماعة وصلاة الجمعة . ورغم أنه قد لا تكون ثمة علاقة مباشرة بين المفهومين ، فمن المهم عقد مقارنة بينهما ضمن إطار مصادر اليهودية والإسلام .

(5) انظر حول ذلك سفر العدد - الأصحاح 13 .

(6) سفر العدد - 14 : 27 .

ويتابع السّؤال : «وما هو مصدر السّند على العُرف الشّفاهي القائل بأنه لما يقوم ولورجل واحد بدراسة الشريعة ، تنزّل عليه الذّات الإلهية ؟» .  
 لأنه مكتوب<sup>(1)</sup> : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنعُ لاسمي ذكراً ، آتي إليك وأباركك» .

\* \* \*

هناك أربع من شخصيات التّوراه تكلّوا أدعيتهم بغير تدبّر أو تفكير ، ومع ذلك أبرّ الله ثلاثة منهم ، بينما خاب الرّابع . وهم : إلبعيزر خادم أبرهّام ، وكاليب بن يفتنه ، وشاؤول بن قيش ، ويفتاح الجلعاوي .

أما إلبعيزر فقد دعا : «ليكن أن الفتاة التي أقول لها : «أميلي جرّتك لأشرب» ، فتقول «اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً» ، هي التي عيّنتها لعبدك يصحاق» (سفر التكوين - 24 : 14) .

فهبّ أن عبدة قامت بأداء المطلوب كما دعا إلبعيزر ، أكان أبرهّام ويصحاق يرضيان ؟ غير أن الله أبرّ بمُرادِه ، وجرى أن «رَبّقاء كانت خارجه» .

أما كاليب فقد دعا : «الذي يضرب قرية سيفر קרית 656 وبأخذها أعطيه عكسّاه לאסא ابنتي امرأة» (سفر القضاة - 1 : 12) .

فهل كان جاهزاً لإعطاء ابنته لعبد أو لوثني ؟

غير أن الله أبرّه ، فكان أن «أخذها عاتنيشيل بن قناز לאתניאל ברקנא ، أخو كاليب 656 الأصغر منه ، فأعطاه عكسّاه ابنته امرأة» .

وأما شاؤول فقال : «فيكون أن الرّجل الذي يقتله (أي جليّات) يُغنيه الملك غنيّ جزيلاً ويعطيه بنته» (سفر صموئيل الأول - 17 : 25) .

فترى أنه خاض الرّهان ذاته الذي خاضه كاليب ، فأبرّه الله أيضاً ، وتمكّن داود بن يشاي من تحقيق ما دعا به .

(1) سفر الخروج - 20 : 24 .

وأما يفتاح فقد أفاض عما بصدرة على هذا النحو : «إن دفعت بني عمّون ليدي ، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسّلامة من عند بني عمّون ، يكون للرّب وأصعدُهُ مُحْرَقَةً» (سفر القضاة - 11 : 31) .

فلنفترض أن جحشاً أو كلباً أو قطاً كان أول خارج للقائه عند رجوعه ، هل كان يُقدّمه قربان محرقة ؟ إن الله لم يُبرّ هذه المراهنة ، فيرد في الكتاب المقدّس : «ثم أتى يفتاح إلى هميصفاً המצפא إلى بيته ، وإذا بابته خارجة للقائه»<sup>(1)</sup> .

قال الرّابي شمعون بن يوحاي : «لقد تحقّقت مطالب ثلاثة أشخاص من قبل أن يتموا تلاوة دعائهم ، وهم : إليعزّر وموشيه وشلومو .

«ففيما يخصّ إليعزّر نقرأ : «وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام ، إذا ريقاه خارجة»<sup>(2)</sup> .

«وفيما يخصّ موشيه نجد : «فلما فرغ من التكلّم بكلّ هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاهها وابتلعتهم»<sup>(3)</sup>» (أي قورح وريعه) .

«وفيما يخصّ شلومو نجد : «ولما انتهى شلومو من الصلاة ، نزلت نار من السّماء وأكلت المحرقة والذّبائح» (أخبار الأيام 2 - 7 : 1) .

### تقديس يوم شبّات

قال الرّابي يوحّان ، نقلاً عن الرّابي يوسيه : «المبتهجون بقدم يوم شبّات (السبّت المقدّس) يورثهم الله من فضله بغير حساب . كما هو مكتوب : «فتفرح بالرّب» ، و«أجعلك تفرح بميراث يعقوب أهلك» . لا كما كان وعد أبرهّام : «قم فامش في الأرض طولها وعرضها» . ولا كوعد يصحّاق : «أعطيك كل ما في هذه الأرض» ، بل كما كان وعد يعقوب : «وتمتدّ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» .

(1) سفر القضاة - 11 : 34 .

(2) سفر التكوين - 24 : 15 .

(3) سفر العدد - 16 : 31 .

قال الرّأبي يهوداه إنه لو كان اليسرّيليون قد راعوا تماماً حرمة يوم شبّات الأول ، بعدما صدر الأمر الإلهي بتقدّيس اليوم السّابع ، لكانوا نجوا من ريقة العبوديّة ، كما هو مكتوب : «وحدث في اليوم السّابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا (المتّنا) ، فلم يجدوا»<sup>(1)</sup> . وفي الأصحاح التالي نقرأ : «وأتى عمّاليق وحارب يسرّيل في رفيديم»<sup>(2)</sup> .

والقصة التالية هي واحدة من قصص كثيرة وُضعت لتبيّن أن الحفاظ على حرمة يوم شبّات يعود على صاحبه بالثواب :

يُحكى أن يهودياً ، اسمه يوسف ، كان يحافظ على حرمة يوم شبّات ، وكان له جار بالغ الثراء ، له اعتقاد كبير بالتنجيم . وكان ثمة منجم عرّاف محترف قال له إن ثروته ستؤول بأجمعها إلى يوسف . ولذلك ، قام الرّجل ببيع أطيانه وأملاكه ، واشترى بئمنها جوهرة عظيمة ، قام بإخاطبتها في عمامته قائلاً : «سوف لن يتسنّى ليوسف على الإطلاق الحصول عليها» . لكن الذي جرى أنه عندما كان الرّجل في بعض الأيام واقفاً على متن سفينة تقلّه في البحر ، هبّت ريح قوية وأطاحت بالعمامة من على رأسه . والتفتت الجوهرة سمكة ، فلما اصطيدت وعُرّضت للبيع في السّوق ، صادف أن يوسف اشتراها لتكون طعام مائدته عشية يوم شبّات . وبالطبع لما شقّ جوفها ألقي الجوهرة بداخلها<sup>(3)</sup> .

سئل الرّأبي يشمعييل بن يهوشوع : «كيف أضحي أغنياء أرض يسرّيل بهذا الغنى الفاحش ؟» ، فأجاب : «كانوا يؤدّون ضريبة العشر الواجبة في وقتها ، كما هو مكتوب : «تؤدّي الأعشار لكي تصير غنياً» . فابتدر السائل قائلاً : «ولكن الأعشار كانت تُدفع لليويين ، فقط أيام قيام الهيكل . فما الفضيلة التي حازوها أثناء إقامتهم في بابل ، حتى أضحوا هناك أغنياء أيضاً ؟» .

(1) سفر الخروج - 16 : 27 .

(2) سفر الخروج - 17 : 8 .

(3) قصة رمزية تتكرّر مراراً في آداب الشعوب ، وفيها مثال مهمّ على وجوب دراسة الفارق بين التراث الأدبي الرّمزي والتراث الدّيني الناتج عن وحي . وسنرى في الفصل القادم نماذج أخرى مهمة تُلقَى أضواءً جليّة على هذا المفهوم .

فأجاب الرأبي : «ذلك أنهم رفعوا مكانة الشريعة المقدسة عن طريق العمل في تفسيرها». «ولكن في البلاد الأخرى ، حيث لم يعملوا في تفسير الشريعة ، كيف استحقوا ما أتاهم من ثروة؟» ، فكان الجواب : «استحقوه بما كانوا يبذلون من تقديس ليوم شبات» .

قال الرأبي آحيا بن أبا : «مكثتُ في لوديك مرةً من المرات ، فاستضافني رجل غني في يوم شبات . كانت مائدته حافلة بأنواع الأطعمة الباذخة ، وكانت الصحاف مصنوعة من الفضة والذهب . وقبل القيام بتلاوة مباركة للطعام ، قال صاحب البيت : «لله ملك الأرض وما عليها» . وبعد تلاوة المباركة قال : «السموات سموات الرب ، أما الأرض فأعطاها لبني آدم»<sup>(1)</sup> . قلت لمُضيفي : «يخال لي أنك تعذرني يا سيدي العزيز ، إن أنا سمحتُ لنفسي أن أسألك عن موجب استحقاقك لهذه التعماء؟» ، فقال : «قد كنتُ فيما مضى جزّاراً ، وكنتُ دوماً أحرص على انتقاء خيار الماشية لأذبحها لأجل شبات ، لكي يحصل الناس من اللحم على أحسنه في ذلك اليوم . ومن جرّاء ذلك ، كما أعتقد جازماً ، نلت هذه التعم» . فأجبتُ : «فتبارك الرب الذي أعطاك هذا كله» .

في إحدى المرات سألت ثرنوسرويس الحاكم الرأبي عقيبا : «ما هو هذا اليوم الذي تدعوه شبات وتتغالي في ذكره مزياه؟» ، أجاب الرأبي : «وما هي مزياك أنت على باقي الناس؟» ، أجاب : «أنا أسود على الجميع ، إذ أن الإمبراطور قد عينني حاكماً عليهم» .

فقال عقيبا : «فإن الرب إلهنا ، الذي هو أعظم من إمبراطورك ، قد عين يوم شبات يوماً أقدس من باقي الأيام» .

وما أجمل ما يؤثر حول عشية يوم شبات :

عندما يبرح المرء الكنيس قافلاً إلى داره يرافقه ملاك للخير وملاك للشّر . فإن ألفى الخوان مزجى في داره ، ومصايح شبات تشعّ بالأنوار ، وامراته وأولاده يرتدون ثياب العيد لمباركة يوم الراحة المقدس ، يقول ملاك الخير :

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .

«ليكن شَبَات القادم وكل شَبَات لكم يأتي على هذه الشَاكلة . سَلامٌ لهذا المسكن ، سَلام» ، وينبغي لملاك الشَّر أن يُجيب : «آمين !» .

ولكن إن كان الدَّار غير مجهَّز ، ولم تكن التَّرتيبات أُعدَّت لاستقبال يَوْم شَبَات ، وما من قلب في الدَّار أنشد : «تعالوا يا أَحَبَّتي نستقبل العَروس ، ونحتفي بقُدوم شَبَات» ، فعندها يتكلَّم ملاك الشَّر ويقول :

«ليكن كلَّ شَبَات لكم يأتي على هذه الشَاكلة» ، فيجيب ملاك الخَير باكيًا مُتحتجًا : «آمين !» .

### الثَّواب والعقاب

أذنب شمشون تجاه الرَّبِّ بعَينيه ، كما هو مكتوب : «قد رأيتُ امرأةً من بنات الفِلسطِينيين . . . إياها خُذ لي ، لأنها حَسُنَّت في عَيني» (سفر القضاة - 14 : 3) .  
ولذلك فإنه بعَينيه قد عوقب ، كما هو مكتوب : «فأخذه الفِلسطِينيون وقلعوا عَينه»<sup>(1)</sup> .

وأبشالوم بن داود كان يفتخر بشعره ، «ولم يكن في كل يسرَّيل رجلٌ جميل كأبشالوم ، ولهذا كان ممدوحاً جداً ، فمن باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب . وعند حلقة رأسه - إذ كان يحلقة في آخر كل سنة ، لأنه كان يثقل عليه - كان يزن شعر رأسه متي شِقْل بوزن الملك»<sup>(2)</sup> . ولذلك ، فبشعره شُنق<sup>(3)</sup> .

أما مريم فقد انتظرت موشيه ساعةً (لما كان في صندوق البردي) . ولذلك ، فإن اليسرَّيليين انتظروا مريم سبعة أيام ، عندما أصابها البرص . «ولم يرتحل الشعب حتى أرجعت مريم» (سفر العدد - 12 : 15) .

(1) سفر القضاة - 16 : 21 .

(2) سفر صموئيل الثاني - 14 : 25-26 .

(3) سفر صموئيل الثاني - 18 : 9 ، وذلك بأنه كان بوغر أفرام «راكباً علي بغل ، فدخل البغل تحت أغصان البُطمة العظيمة الملتفة ، فعلق رأسه بالبُطمة وعلق بين السَّماء والأرض ، والبغل الذي تحته مر» .

ويوسف دَقَنَ أباه ، «فصعد يوسف ليدفن أباه»<sup>(1)</sup> . لم يك ثمة أعظم من يوسف بين بني إسرائيل ، غير أن مُوشيه فاقه شأناً فيما بعد ، لذلك نجد : «وأخذ مُوشيه عظام يوسف معه»<sup>(2)</sup> . غير أن هذه الدنيا لم تشهد أعظم من مُوشيه ، لذلك فهو مكتوب : «ودَقَنه (الله) في الجواء في أرض مُواب»<sup>(3)</sup> .

\* \* \*

عندما أضحت المشقة والحسرة نصيب بني إسرائيل ، وتم إقصاء الضعفاء عن شعبهم ، كان ملاكان يرتان بأيديهما على رأس مَنْ ينسحب ، قائلين : «لا يشهد هذا خلاص الشعب» .

فعندما تحمل المشقة بالرعية لا يحسن بالمرء أن يقول : «أنا ذاهبٌ إلى بيتي ، فأكل وأشرب ، وأموري تكون بخير» ، فعن مثل هذا يتحدث الكتاب المقدس : «فهو ذا بهجة وفرح ، ذبح بقر ونحر غنم ، أكل لحم وشرب خمر . لناكل ونشرب ، لأننا غداً نموت . فأعلن في أذني رب الجنود : «لا يُفقرن لكم هذا الإثم حتى تموتوا»» (سفر يشعيا - 22 : 13-14) .

أما معلّمنا مُوشيه ، فقد حمل نصيبه على الدوام من مشقة الشعب ، كما هو مكتوب : «أخذنا حجراً ووضعاه تحته» (سفر الخروج - 17 : 12) . أفلم يكن ممكناً لهما أن يقدمّا له مقعداً أو وسادة ؟ لكنه بعدها قال : «ما دام اليسرّيليون في شدة (خلال الحرب مع عماليق) فهذا أنا ذا أتحمل ما يقع على عاتقي إلى جانبهم ، لأن مَنْ يتحمل ما يقع عليه في زمن البلاء يعيش ليهيج بساعة السلوان . وويل لمن يقول في نفسه : «لعلّي أترك واجبي ، فمن تراه يدري بي إن أنا تحمّلت واجبي أم لم أتحمل ؟» ، فحتى حجارة بيته وأغصان الأشجار تراها تكون شاهدة عليه ، كما هو مكتوب في الأسفار : «لأن الحجر يصرخ من الحائط ، فيشهد له الجائر من الحشَب»<sup>(4)</sup> .

(1) سفر التكوين - 50 : 7 .

(2) سفر الخروج - 13 : 19 .

(3) سفر تثنية الاشتراع - 34 : 6 .

(4) سفر حَبَقوق - 2 : 11 . لكن كيف يقول مُوشيه بما لم يكن مكتوباً بعد في عصره ؟!

## السعي في الرزق

قال الرّابي مثير : «عندما يعلم امرؤ ابنه حرفة ، ينبغي له أن يدعو مالك الكون ومُعطي الغنى والفقر ، لأنه في كل حرفة وباب رزق ثمة أغنياء وفقراء لا محالة . فمن الغباء أن يقول شخص ما : «هذه حرفة رديئة ، سوف لن توفّر لي معاشي» ، لأنه سوف يجد الكثيرين قد أجادوا وأفلحوا في المهنة ذاتها . وكذلك لا ينبغي لرجل مُنعم في عمله أن يتباهى ويقول : «هذه حرفة ممتازة ، خير الصنائع ، لقد جعلتني موسراً» ، لأن الكثيرين ممن يعملون في الحرفة ذاتها سواء لم يلاقوا إلا الفقر . بل ليذكر الجميع أن كل شيء في الحياة إنما يتأتى من خلال رحمة الله وحكمته الواسعتين» .

وقال الرّابي شمعون بن إليعزّر : «تراني ألاحظ طيور السماء ودواب الأرض كيف يأتيها رزقها ، وهي مع ذلك مخلوقة لخدمتي ، فأقول : «ألا يحقّ لي أن أحظى بحياة مثلها أو أقلّ منها مشقّة ، حيث أنني خلقت لخدمة إخواني من النَّاس ؟ ولكنني للأسف قد أخطأتُ في حقّ خالقي ، ولذلك عوقبتُ بالفقر والحاجة إلى العمل !» .

وقال الرّابي يهوداه : «غالبية المكاريين (البغالين) قُساة القلوب ، فهم يضربون دوابهم المسكينة بغير رحمة . ومُعظم الجمالين مُستقيمون ، إذ أنهم يجوبون البوادي والمفاوز الموحشة ، ويجدون مُتسعاً من الوقت للتأمّل والتفكير في الله . ومُعظم البحارة متمسّكون بأهداب الدّين ، فحياتهم اليوميّة المحفوفة بالأخطار تدفعهم إلى ذلك . وخير الأطباء قَمِينون بالعقاب ، إذ أنهم في أثناء تحصيل علومهم يتعاطون التّجارب على مرضاهم ، فتكون عاقبة ذلك مراراً الموت . أما خير الجزّارين فيستحقّون أن يُصنّفوا مع العماليقين ، فهم معتادون على الدّم والقسوة ، كما هو مكتوب في حقّ العماليقين : «اذكّر ما فعله بك عماليق في الطريق عند خروجك من مصر . كيف لاقاك في الطريق وقطع من مؤخرتك كلّ المُستضعفين ، وأنت كليلٌ ومُتعبٌ»<sup>(1)</sup> .

(1) سفر تثنية الاشتراع - 25 : 17-18 .

## حول الموت

يولد الإنسان ويدها مطبقتان ، ويموت ويدها مبسوطتان . فهو عندما يدخل مُعترك الحياة يودّ لو يقبض كل شيء ، أما عندما يبارح الحياة فإذا بكل شيء ينسلّ غيلةً من يديه .

مثل الإنسان كمثّل الثعلب ، فقد أبصر ثعلبٌ كرمًا فتملكته الشهوة إلى الأكل من أعنابه . بيد أن السيّاح كان ضيق الثغرات ، وكان جسم الثعلب أضخم من أن يتمكن من التّغاذ عبرها . فكان أن صام ثلاثة أيام ، ولما نحل جسمه واستدقّ ولج الكرم ، وراح يولم بكامل شهيته على عناقيد العنب ، ناسياً أمر الغد وما سيأتي به ، ولم يكثرث إلا للانغماس فيما هو فيه من متّع . فإذا به يغدو مكتنزاً من جديد ، ويعجز عن الخروج من ساحة وليمته . ولذا ، لم يجد بُدّاً من الصّوم ثلاثة أيام أخرى ، فلما أمسى نحيلاً من جديد عبّر من خلال السيّاح ونفذ إلى خارج الكرم ، نحيلاً كما دخله .

فهكذا شأن الإنسان ، يلج الحياة ضعيفاً وعرياناً ، ثم يغادرها ضعيفاً وعرياناً بالمثّل .

وكم هي معبرة هذه الحكاية التالية ، مما يؤثّر عن الإسكندر<sup>(1)</sup> :

يُروى أنه حام حول أبواب الجنّة ، وطرق الباب للدخول .

«مَنْ الطارق؟» . . سألت الملائكة السدنة .

«أنا الإسكندر» .

«ومَنْ هو الإسكندر؟» .

«أنا الإسكندر بذاته ، الإسكندر الأكبر ، فاتح الدُّنيا» .

أجابت الملائكة : «لسنا نعرف هذا الاسم ، فهذا باب الله ، لا يدخله إلا

الصّالحون» .

(1) أي الإسكندر الأكبر المقدوني Alexander (356-323 ق.م) الفاتح الشهير وأحد عباقرة الحرب على مرّ العصور .

فراح الإسكندر يرجو إعطائه شيئاً ليبرهن على أنه قد بلغ أبواب الجنة ، فطُرحت له شظية من عظم جُمجمة . فأراها لحُكَّامه ، فوضعوها في إحدى كفتي ميزان . كال الإسكندر ذهباً وفضة في الكفة الأخرى ، غير أن شظية العظم بقيت أثقل ، فكال المزيد بما فيه تاجه وقلاداته المرصعة بالجواهر وإكليله الملكي ، غير أن كسرة العظم الصغيرة ظلت تفوقها جميعاً بالوزن . عندها ، أخذ أحد الحكماء ذرة من تُراب من الأرض وجعلها على قطعة العظم ، فإذا بالميزان يثبُّ إلى أعلى .

لقد كانت شظية العظم تلك من العظام المحيطة بعين الإنسان ، وأما عين الإنسان هذه فليس ثمة شيء يُرضيها أو يملأها إلا التراب الذي يطمرها في القبر .

عندما يموت الصالحون فالأرض هي التي تتحسّر . فالذرة تبقى دوماً ذرة ، بخلاف أنها انتقلت من ملك صاحبها السابق . ولذا فليبكِ الخاسرون .

ما الحياة الدنيا إلا كطيف زائل ، كما يقول وحي الكتاب المقدس . كظل بُرج أو شجرة ، أهو ظلٌ يبقى وقتاً ؟ لا ، بل هو كظل طير يطير ، يمضي من ناظرنا فلا طيرٌ يبقى ولا ظلٌ .

### موعظة جنازية لموت حاخام

«حييي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ، ليرعى في الجنّات ويجمع السوسن»

דודי ירד לגנו לערגות הבשם לרעות בגנים וללקט שושנים:

(نشيد الأناشيد - 6 : 2) .

فما الدنيا إلا جنة حييي ، وحييي هو ملك الملوك . وكخمائل الطيب هو يسرئيل ، حيث يفوح عبير الرحمة الزكي ، ويتضوع أريج العلم مع النسائم العليلة ، وتحفّ بخمائل الطيب دعة السلام ورغده . حيث تزهر النباتات وتورق ، فتوقر أوراقها وغصونها الوارفة حرزاً أميناً لمن أمضّ به لهيب الحرّ أو مكابدة الحياة . وحيث حييي يطلب أجمل الرياحين ويقطف الأزاهير ، التي هي طلاب الشريعة ، تمنّ يجدون في عقائد دينهم غاية النعيم .

عندما يشتدّ لهيب النَّارِ بخشب الأرز ويستعر ، أفلا يجدُ نبات الزُّوفَا  
(أشنان داود) أن يخاف ويرتعد ؟ وعندما يسحب الزَّيْبَانِيَّة بالشَّصَّ حِيَّة لُويَاتَان<sup>(1)</sup>  
לוייתן الرَّهِيْبِيَّة من أعماقها السَّحِيْقَة ، فما يبقى من أمل لأسمك المناقع الضَّحْلَة ؟  
وعندما يُلقَى بخيط صيد السَّمَك في السَّيْلِ الجارف ، فكيف تشعر بالأمان أمواه  
السَّوَامِي الرِّقْرَاقَة ؟

فلنرثي لحال أولئك الباقيين على قيد الحياة ، ولا نرثين مَنْ اصطفاه الله من  
وجه الأرض . فلقد آل هو إلى السَّكِينَة الأبدِيَّة ، بينما نمكُ نحنُ ها هنا خاضعين  
للأسى والحسرات .

\* \* \*

---

(1) وحش بحري يرمز إلى الشرِّ ، يذكر في سفر أيوب - 41 : 1 ؛ ومزامير داود - 74 : 14 ؛  
والمزامير - 104 : 26 ؛ وسفر يشعيا - 27 : 1 .



## الفصل الثالث

### وقائع من سير حياة الحاخاميم

الرابي عقيبا<sup>(1)</sup>

רבי לקיבא

من واجب الإنسان شكر الله على ما يصيبه من ضرر ومكروه ، كما يشكره على ما يصيبه من خير ، كما هو مكتوب : «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»<sup>(2)</sup> .

«من كل قلبك» . أي من كل نزوع طبيعي لك ، سواء تجاه الخير أو الشر .

«ومن كل نفسك» . حتى وإن لزم الأمر أن تعطيه روحك .

«ومن كل قوتك» . كل ما تملكه لشخصك . وبغض النظر عما يُقدر لك

من الخير أو الشر ، فعليك أن تكون شكوراً .

كان الرابي عقيبا في إحدى المرآت مرتحلاً عبر البلد ، وكان معه جحش وديك

ومصباح . فلما حل الظلام كان قد بلغ قرية حاول فيها البحث عن مأوى ، لكنه لم يُصب في ذلك فلاحاً .

(1) عقيبا (بالعبرية أكيبا أو أكيفا) بن يوسف (50-135 م) مؤسس اليهودية الحاخامية وشارح المشناه (القانون الشفهي) . عاضد ثورة شمعون بار كوخبا ضد الرومان (132-135 م) ، وكان يعتقد المسيح المنتظر ، وإثر فشل ثورته قبض على عقيبا فعذب حتى مات .

(2) هذه آية من أهم صلاة في التوراه : «اسمع يا يسرئيل» (شماع ياسرئيل שמע ישראל) ، سفر التثنية - 6 : 4-9 ، ونصها الكامل : «اسمع يا يسرئيل ، الرب إلهنا رب واحد . فتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ . ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصها على أولادك ، وتكلم بها حين تجلس في بيتك ، وحين تمشي في الطريق ، وحين تنام ، وحين تقوم . واربطها علامة على يدك ، ولتكن عصائب بين عينيك . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» .

قال الرّأبي : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» ، وحزم أمره على التوجّه إلى الغاية ، عازماً على المبيت فيها . أشعل مصباحه ، فأطفأته الريح ، فقال : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» . وما لبثت الوحوش الضّارية أن افترست الجحش والديك ، فلم يزد الرّجل على مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

في اليوم التالي سمع بأن فرقة من جنود الأعداء كانت قد اجتازت بالغابة في تلك الليلة . فلو أن الجحش كان نهق ، أو أن الديك صاح ، أو لو لمح الجنود ضوء مصباحه ، لكان لاقى حتفه دونما ريب ، ولذلك عاود مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .



وجرى مرّة عندما كان الرّأبي جَمَلِيثِيل ، والرّأبي إليعيزر بن عازورياه ، والرّأبي يهوداه ، والرّأبي عقيبا ، كانوا يسيرون معاً ، تناهت إلى أسماعهم أصوات صياح وضحك وصخب فرح صادرة عن حشد من النّاس على مَبعدة . فبكى أربعة من الحاخاميم ، ما خلا عقيبا الذي ضحك بقوة .

فقال الآخرون له : «عقيبا ، ما الذي يضحكك ؟ هؤلاء الوثنيون الذين يعبدون الأصنام يُقيمون في أمان وسلام ، وينعمون بالسّعد والحُبور ، بينما تمكث مدينتنا المقدّسة خراباً يباباً ، فلتبك بدلاً من أن تضحك» .

أجاب الرّأبي عقيبا : «لهذا السّبب بعينه أضحك وأشعر بالسّعادة ، فإن كان الله يسمح لهؤلاء الذين يعصون أوامره بالحياة سُدءاء على الأرض ، فكيف تكون بالأحرى عظيمة السّعادة التي يدخرها في الحياة الآخرة لمن يتبعون أوامره ويتتهون عن نواهيهِ !» .

في مناسبة أخرى ، كان هؤلاء الحاخامون يتجهون صعبوداً إلى يروُشلايم ، فلما بلغوا جبل صُوفيم ورأوا الإقفار الذي يخيم على المكان مزقوا ثيابهم . ولما بلغوا الموضع الذي كان يقوم فيه الهيكل ، رأوا ثعلباً ينفر من البقعة التي كان بها قدّس الأقداس ، فراح أربعة منهم يركون بمرارة ، إلا عقيبا بدأ بالمثل جدلاً . فراح زملاؤه يوتخونه مجدداً على شعوره هذا الغير ملائم في نظرهم .

فقال : «تُتكرون فرحي ، فقولوا أنتم أولاً : ما الذي يُبكيكم ؟» .

«لأن الكتاب المقدس يُخبرنا بأن أي غريب (من غير نسل أهرُون) يقترب من قُدس الأقداس ، ينبغي أن يُقتل ، والآن فهذا هي الثعالب تتخذها وجاراً لها . أفلا نبكي لذلك ؟» .

أجاب عَقيبا : «فأنتم تبكون إذا للسبب ذاته الذي يُفرح قلبي . أوليس مكتوباً : «أشهد لنفسي شاهدين أمينين ، أورياً الكاهن وزكرياً بن بِيْرخياهو»<sup>(1)</sup> ؟ فما هي علاقة أورياً بزكرياً ؟ لقد عاش أورياً عندما كان الهيكل الأول قائماً ، بينما عاش زكرياً في أيام الثاني . أفلا تعلمون بأن نبوءة أورياً تُشبه نبوءة زكرياً ؟ فمن خلال نبوءة أورياً نجد : «لذلك بسبيكم تُفلح صهيون كحقل ، وتصير يروشلايم خرباً ، وجبل البيت شوامخ وعر»<sup>(2)</sup> ، وفي سفر زكرياً نجد : «سيجلس بعدُ الشيوخ والشيوخات في أسواق يروشلايم»<sup>(3)</sup> . فقبل أن تتحقق نبوءة أورياً ، قد كان يمكن لي أن أشك في حقيقة كلام زكرياً المُطمئن ، ولكن بما أن الأولى قد تحققت بالفعل ، أراني واثقاً أن وعود زكرياً سوف تتحقق أيضاً ، فلهذا السبب أنا فرحٌ جدلان» .

أجاب الرفاق : «إن كلامك هذا يعزينا يا عَقيبا ، فإدام الله علينا عزاءه» .

ومرة أخرى بعد ، لما كان الرأبي إليعيزر طريح الفراش وقد برحت به أسقام المرض ، وجعل أصحابه وتلامذته يبكون عنده ، إذا بالرأبي عَقيبا يظهر فرحاً ، ويسألهم علامَ يبكون . فأجابوا : «لأن رابيننا المحبوب مُلقى بين الحياة والموت» . أجابهم : «لا تبكوا ، بل على العكس ابتهجوا . فإن كان نبيذ لم يُمس حاذقاً ، ولم تُنكس رأيتُه ، لظننتُ أنه في الحياة الدنيا قد نال ثواب صلاحه ؛ ولكنني إذ أرى الآن معلّمِي وهو يعاني لما قد يكون اقترفه في حياته من آثام ، فإنني أبتهج وأزهو . فلقد علمنا بأن أكثرنا صلاحاً وثقى لا بدّ أن يكون ارتكب ذنباً ، ولذا فهو في الحياة الآخرة ينال سلاماً» .

(1) سفر يشعيا - 8 : 2 .

(2) سفر ميخا - 3 : 12 ، وقبل ذلك ترد النبوءة في سفر يرميا - 26 : 18 .

(3) سفر زكرياً - 8 : 4 .

وعندما كان الرَّابِي إِيْعِيزَر مريضاً ، قام بعبادته أعيان الحاخاميم الأربعة ، وهم : الرَّابِي طَرْفُون ، والرَّابِي يَهُوشُوع ، والرَّابِي إِيْعِيزَر بن عازُورِيَاه ، والرَّابِي عَقِيْيَا .

فتكلّم الرَّابِي طَرْفُون وقال : «أنت لبني يسرّيل خيرٌ من ويَل المطر على أديم الأرض ، لأن المطر يحيي الحياة في الدّنيا فحسب ، أما أنت يا معلّمي فلقد ساعدت على إنضاج ثمار هذه الحياة الدّنيا والآخرة» .

وقال الرَّابِي يَهُوشُوع : «أنت لبني يسرّيل خيرٌ من الشّمس ، فإن كانت الشّمس تنير هذه الدّنيا فحسب ، فأنت قد وهبت نورك لهذه الحياة الدّنيا وللآخرة» .

ثم تكلّم الرَّابِي إِيْعِيزَر بن عازُورِيَاه ، فقال : «أنت لبني يسرّيل خيرٌ من الأب والأم للإنسان . فهما يقدّمانه إلى هذه الدّنيا ، أما أنت يا معلّمي فترشده إلى سواء السّبيل نحو طريق الخلود» .

ثم تكلّم الرَّابِي عَقِيْيَا ، فقال : «من الخير للإنسان أن يُبتلى ، إذ أن مُعاناته تكفّر عن سيئاته» .

قال معلّمه : «فهل في الكتاب المقدّس تأكيدٌ لذلك يا عَقِيْيَا ؟» .

أجاب عَقِيْيَا : «أجل ، «كان منّشيه ابن اثنتي عشرة سنة حين ملك ، وملك خمساً وخمسين سنة في يروشلايم ، وعمل الشّرّ في عيني الرّب» (سفر الملوك الثاني - 21 : 1) . فكيف كان ذلك ؟ أيكون الملك حزقياه علّم الشريعة للعالم بأسره ، ولم يعلم ابنه ؟ حتماً لا ، لكن منّشيه لم يلتفت إلى وصاياه وأهمّل كلمة الله حتى ابتلي جسده بالأمراض ، كما هو مكتوب (في سفر أخبار الأيام الثاني - 33 : 10) : «وكلّم الرّب منّشيه وشعبه فلم يُصغوا ، فجلب الرّب عليهم رؤساء الجنّد الذين للملك أشور ، فأخذوا منّشيه بخزامة وقيّدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل . ولما تضايق طلب وجه الرّب إلهه ، وتواضع جداً أمام إله آبائه ، وصلّى إليه . فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشلايم إلى مملكته . فعلم منّشيه أن الرّب هو الله» .



قال الرَّابِي إِيْعِزَّرَ الْكَبِيرُ : «نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِمَا يَلِي : «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَبِكُلِّ مَا هُوَ مُحِبَّبٌ إِلَيْكَ» .

«أَفَلَا تَتَضَمَّنُ عِبَارَةَ «مَنْ كُلِّ نَفْسِكَ» مَغْزَى «بِكُلِّ مَا هُوَ مُحِبَّبٌ إِلَيْكَ» ؟  
«لَرُبَّمَا يُحِبُّ بَعْضُ النَّاسِ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّ مَالَهُ ، فَلَهُ يُقَالُ : «مَنْ كُلِّ نَفْسِكَ» ، بَيْنَمَا بِخُصُوصٍ مَنْ كَانَ يُحِبُّ مَالَهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ فَالْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ يَنْصَرُّ : «وَبِكُلِّ مَا هُوَ مُحِبَّبٌ إِلَيْكَ» .

غَيْرَ أَنَّ الرَّابِيَّ عَقَبِيًّا عَلَى الدَّوَامِ يَشْرَحُ عِبَارَةَ «مَنْ كُلِّ نَفْسِكَ» عَلَى أَنَّهَا تَعْنِي : «حَتَّى وَإِنْ طَلَبْتَ مِنْكَ حَيَاتِكَ» .

وَمَاذَا كَانَ مَوْقِفُ الرَّابِيِّ عَقَبِيًّا إِيَّانَ صُدُورِ ذَلِكَ الْمَرْسُومِ الَّذِي حَرَّمَ عَلَى الْيَسْرَائِيلِيِّينَ دِرَاسَةَ الشَّرِيعَةِ ؟ لَقَدْ أُسِّسَ عِدَّةُ رَعَوِيَّاتٍ سَرِّيَّةٍ ، وَرَاحَ يَدْرَسُهُمْ خَفِيَّةً .

فَقَالَ لَهُ پَاطُوسُ بْنُ يُوْدَاهُ : «أَلَسْتَ خَائِفًا يَا عَقَبِيًّا ؟ قَدْ تُكْتَشَفُ أَفْعَالُكَ ، فَتُعَاقَبُ عَلَى مُخَالَفَتِكَ لِلْمَرْسُومِ» .

أَجَابَ عَقَبِيًّا : «اسْمَعْ ، سَأُرْوِي لَكَ قِصَّةً . يُحْكِي أَنَّ ثَعْلَبًا كَانَ يَسِيرُ بِجَانِبِ النَّهْرِ ، فَابْصَرَ بِالسَّمَكِ يَسْبَحُ وَيَسْبَحُ جِيئَةً وَذَهَابًا ، دُونَ تَوَقُّفٍ ، فَقَلَّ لِنَفْسِهِ : «عَلَامَ أَنْتَنَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكُنَّ ؟ مَا الَّذِي يَخِيفُكُنَّ ؟» .  
أَجَبَ : «شَبَاكَ الصَّيَّادِينَ» .

«فَقَالَ الثَّعْلَبُ : «تَعَالَيْنِ إِذَا ، وَعِشْنَا مَعِيَ عَلَى الْيَابَسَةِ» .

«فَضَحِكَتِ الْأَسْمَاكُ ، وَقُلْنَ : «وَيَقُولُونَ إِنَّكَ أَكْثَرُ الْحَيَوَانَاتِ حِكْمَةً ؟ الْحَقُّ أَنَّكَ أَكْثَرُهَا غَفْلَةً . فَإِنْ كُنَّا نَحْتِ الْخَطَرِ حَتَّى فِي مَوْطِنِنَا الْأَصْلِيِّ ، فَكَمْ بِالْأَحْرَى نَكُونُ فِي خَطَرٍ أَدْهَى إِنْ نَحْنُ تَرَكْنَاهُ ؟» .

«فَشَانَنَا هُوَ كَذَلِكَ بِالضَّبْطِ . إِذْ يُقَالُ لَنَا عَنِ الشَّرِيعَةِ إِنَّهَا «حَيَاتُنَا وَطَوْلُ أَيَّامِنَا» . فَهَذَا عِنْدَمَا تَكُونُ أُمُورُنَا بِخَيْرٍ وَأَمَانٍ ، فَكَمْ هِيَ حَاجَتُنَا إِلَيْهَا أَكْبَرَ بِالْأَحْرَى فِي أَوْقَاتِ كَهْذِهِ ؟» .

ويقال إنه لم يمض كثير من الوقت بعدها ، حتى زُجَّ بالرابي عقيبا في السّجن بسبب تدريسه الشريعة ، وإذا به في السّجن الذي حُبس فيه يجد پاپوس ، الذي كان مُداناً بجناية من نوع آخر .

فقال له الرابي عقيبا : «پاپوس ، ما الذي أتى بك إلى هنا ؟» .

فأجاب پاپوس : «مرحى لك مرحى ، بأنك تُسجن لتدرّسك شريعة الرّب ، أما أنا فعارّآلي وشارآ ، إذ أتيت هنا بسبب أمور الباطل» .

فلما سبق الرابي عقيبا إلى الإعدام ، كان وقت صلاة الصّبح قد دخل . فصاح بصوت جهوري ثابت : «اسمع يا يسرئيل ، الرّبُّ إلهُنا ربُّ واحد» .

فراح الجلاّدون يمزقون لحمه بالمناخس المديبة ، غير أنه بقي يردّد : «الرّبُّ واحد» (أدوناي إحاد) .

وتابع : «كنتُ دوماً أقول إن الآية «من كلّ نفسك» تعني : حتى وإن طلبت منك حياتك ، وكنتُ أتساءل إن كان في وسعي حقاً أن أبرّ بكلامي هذا . فها أنا ذا اليوم أفعل ، وإن «الرّبُّ واحد» .» .

وبهذه الكلمات الأخيرة فاضت روحه إلى بارئها .

فنعّمى لك يا أيها الرابي عقيبا<sup>(1)</sup> ، بأن روحك خرجت طاهرة ، وأن سعادة الحياة الأبدية تكون ملكاً لك بتمامها .

### الرابي إيشاع بن أبوياء רבי אלישע בן אבוייה

الرابي إيشاع بن أبوياء ، الذي كان علامةً لا يُجارى في فقه الشريعة ، بات في أواخر حياته مُرتداً *משומד* . وكان الرابي مثيراً واحداً من تلاميذه ، لم يُثبته شيء عن محبته الفائقة التي يكنّها لمعلمه .

(1) نحن المسلمون ننظر إلى كل إنسان مؤمن موحّد بأنه من عباد الله الصّالحين ، ولا نقول باقتصار الإيمان على شعب دون آخر ، بل «إلا من أتى الله بقلب سليم» .

وحدث في إحدى المناسبات عندما كان الرأبي مثير يُحاضر في المدرسة ، أن دخل بعض التلاميذ وقالوا له : «ها هو معلّمك الإشاع يمتطي صهوة حصان في يوم سبّات المقدّس» .

فخرج الرأبي مثير من المدرسة ، ولما أدرك الإشاع مشى بجانب حصانه . فحيّاه هذا الأخير ، وسأل : «آية آية من الكتاب المقدّس كنت تفسّر؟» .  
أجاب الرأبي مثير : «من سفر أيوب ، الآية «وبارك الربّ آخرة أيوب أكثر من أولاه»<sup>(1)</sup>» .

قال الإشاع : «فكيف فسّرت هذه الآية؟» .

«بأن الربّ زاد على كلّ ما كان من مال لآيوب ضعفاً» .

أجاب الإشاع : «لكنّ معلّمك عقيبا قال غير ذلك ، قال إن الربّ بارك أواخر أيام أيوب بضعفين من التوبة والعمل الصّالح» .

فسأل الرأبي مثير : «فكيف تفسّر إذا الآية «نهاية أمرٍ خيرٍ من بدايته»<sup>(2)</sup>؟ هبّ أن رجلاً ابتاع بضاعة ما في شبابه ومُنّي فيها بخسائر ، فهل من الممكن أن يستردّ ثروته في شيخوخته ؟ أو لنفترض أن شخصاً درس شريعة الله في شبابه ثم نسيها ، فهل من المحتمل أن تعود إلى ذاكرته في أواخر أيامه؟» .

أجاب الإشاع : «معلّمك عقيبا لم يقل ذلك ، بل شرح الآية بأن «عواقب الأمور تصحّ إن صحّت بداياتها» . وسيرة حياتي تُثبت صواب هذا التفسير . ففي اليوم الذي أدخلتُ فيه بعهد أبرهام<sup>(3)</sup> عمل أبي مادبة عظيمة ، فراح بعض من زوّاره يغتني ، والآخر يرقص ، بينما راح الحاخامون يتبادلون الحديث حول حكمة الله وشرائعه . فراق الأمر لأبي أبوياء ، فقال : «عندما يشبّ ولدي تعلّمونه فيصبح مثلكم» . فلم يكُ راغباً بتعليمي لوجه الله ، بل ليُشهر اسمه من خلالي وحسب . لذلك في آخر أيامي صرتُ خبيثاً ومُرتدّاً . والآن هيّا عدّ» .

(1) سفر أيوب - 42 : 12 .

(2) سفر الجامعة - 7 : 8 .

(3) المراد بعهد أبرهام في اليهودية الختان ، انظر سفر التكوين - 17 : 9-14 .

«ولماذا؟» .

«لأنه في يوم شبّات لا يجوز لك أن تمضي إلى هذا الحدّ ، إذ حسبت المسافة التي قطعتها معي بتعداد خطوات حصاني» .

قال الرّابي مثير : «طالما كنت بهذه الحكمة فتحسب لي المسافة التي يجوز لي اجتيازها من خلال خطوات حصانك ، ولما كنت حريصاً على مصلحتي ، فما بالك لا تعود إلى الله وتوب عن ردّتك؟» .

فأجاب إليشع : «ليس ذلك لي . ففي إحدى المرات كنت أركب حصاناً في يوم الغفران ، وصادف مجيؤه يوم شبّات . فلما عبرت بالكنيس سمعت صوتاً ينادي : «عودوا أيها الأبناء الضالّون ، عودوا إليّ فأعود إليكم ، ما خلا إليشع بن أبوياء ، الذي عرف مولاه ثم عمّد عليه» .

فما الذي يدفع رجلاً متفقهاً كالإشع بالردّة إلى طرق الضلال ؟

يذكر أنه عندما كان مرّة يدرس الشريعة في وادي جنوسان ، أبصر رجلاً يتسلق شجرة ، وعثر الرجل على عُشّ طير في الشجرة ، ورغم أنه أخذ الأم وقرأها فقد انصرف دون أن يمسه أي ضرر . ثم رأى رجلاً آخر عثر على عُشّ طائر ، فاتبع تعاليم الكتاب المقدّس وأخذ الفراخ فقط ، تاركاً الأم تطير عنه ، ومع ذلك نهشته حيّة فيما كان نازلاً ، فمات . ففكر الإشع في نفسه : «إذا أين هي حقيقة الكتاب المقدّس وعوده ؟ أليس مكتوباً : «فلا تأخذ الأم مع الأولاد ، أطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد ، لكي يكون لك خيرٌ وتُطيل الأيام»<sup>(1)</sup> . فأين هو طول الأيام المزعوم لذلك الرجل الذي اتّبع الوصية ، بينما الآخر الذي انتهكها بقي سليماً معافى؟» .

إنه لم يسمع كيف فسّر الرّابي عقيباً هذه الآية ، بأن طول الأيام إنّما هو في الحياة الآتية ، حيث السعادة تعمّ .

وثمة سبب آخر أيضاً يروى حول دافع الإشع للضلال والارتداد .

(1) سفر التثنية - 22 : 6-7 .

ففي غضون الفترة المشحونة بالخوف خلال مرحلة الاضطهاد الديني ، كان  
الرابي الفقيه يهوداه ، الذي أمضى حياته في دراسة الشريعة وتطبيق وصايا الله ، قد  
سَلَّم إلى أيدي جلّادي التعذيب الغلاظ القلوب . فوَضِع لسانه في فم كلب  
فقضمه الكلب وانتزعه من فيه .

فقال إِيْشَاع : «إن كان اللسان الذي لم ينطق إلا بالحق يُعامَل هكذا ،  
والحكيم الفقيه يُهان على هذا النحو ، فما هو إذاً جدوى تجنّب الكذب وزلات  
اللسان ، أو اجتناب الجهل ومثالبه ؟ فإن كان ما جرى هذا وارداً ومسموحاً ،  
فمعناه بلا ريب أنه لا الصالح يُجزى بإحسانه ، ولا قيامة بعد الموت» .

ولما أمسى إِيْشَاع عجوزاً وقع طريح المرض ، فلما دري الرابي مشير بمرض  
معلمه العجوز ، قام بعيادته .

قال الرابي مشير متوسلاً : «أواه ، عُدْ إلى إلهك ، عُدْ!» .

قال إِيْشَاع : «ماذا ؟ أعود ؟ وهل يقبل تويتي ، توية مُرتدّة تمرد عليه بهذا  
الشكل ؟» .

قال مشير : «أليس مكتوباً : «تُرْجَع الإنسان إلى الغبار» ؟ (المزامير 90 : 3) .  
فمهما كانت نفس الإنسان محطّمة ، يبقى بإمكانه الأوبة إلى إلهه والحصول على  
المغفرة وراحة النفس» .

فاستمع إِيْشَاع إلى هذا الكلام ، وبكى بمرارة ثم فاضت روحه<sup>(1)</sup> . ولم  
يمض كثير من السنين عقب موته ، حتى أتت بناته وقد عضّهن الفقر بنايه ،  
يلتمسن العون من المدرسة . فقُلن : «تذكروا محاسن أئبنا في تفيقه الناس ، لا  
في مسلكه» .

فامثل القيمون على شؤون المدرسة لهذا المطلب ، وأعانوهنّ .

(1) ولد إيشاع قبل عام 70 م ، واستهوتته الحضارة الهلينية فرمما كان هذا دافع ارتداده ، وقيل  
كان غنوصياً ، فكان يُلقب بلفظ أخير 717 أي الآخر (الكافر) . وشخصية هذا الرجل  
تستدعي الدراسة حقاً ، ولم يكتب عنه باللغة العربية غير الماع في موسوعة المسيري .  
وعنه دراسة للباحث اليهودي بيرديشفسكي .

## الرأبي شمعون רבי שמעון

كان الرأبي يهوداه والرأبي يُوسيه (جوزيه) والرأبي شمعون يتناقشون في بعض الأيام ، عندما دخل يهوداه بن جيريم البيت الذي كانوا فيه ، وجلس مع الثلاثة . وكان الرأبي يهوداه يتحدث بمدح صافٍ عن الأميمين (الرّومان)<sup>(1)</sup> . فقال : «أترون كيف حسّنا من أمر مُدُنهم ، وكيف رفعوا رونقها وجمالها ، وكم بذلوا من جهد لأجل راحة مواطنيهم ورفاهيتهم : حمّامات عامّة ، وجسور ، وشوارع أنيقة وعريضة . لا شك بأن لهم بذلك فضلاً عظيماً» .

أجاب الرأبي شمعون : «لا بل كلّ ما فعلوه كان ناجماً عن دافع الأنانيّة . فالجسور تعود عليهم بالعوائد ، لأن كلّ مَنْ يستعملها تتوجّب عليه ضريبة ، أما الحمّامات فهي لترفّهم الشخصي . هذه كلّها من ضروب الأنانيّة ، وليس بدافع الحسّ الوطني» .

فراح يهوداه بن جيريم يردّد هذا النقاش على أسماع أصحابه ، حتى وصل أخيراً إلى أذني الإمبراطور ، فلم يضرب على ذلك صفحاً . فأمر بأن يهوداه ، الذي تكلم بخير في حقّ الدّولة ، يُرقي شأنه ويكرّم ؛ وأن يُوسيه (جوزيه) الذي بقي صامتاً بدلاً من أن يُثني على تصريحات يهوداه ، يُنفي إلى صِغُوري لا ٦٦٥٦ ؛ وبأن يُعدّم شمعون الذي اعترض على المديح .

فما كان من هذا الأخير إلا أن هرب مع ابنه واختبأ في المدرسة عندما دري بهذا المرسوم الإمبراطوري . ومكث هناك بأمان نسبي مدّة من الوقت ، وكانت زوجته تجلب له الطعام يومياً . ولكن عندما طُلب إلى الضبّاط القيام ببحث مكثّف خاف ، وتحسّب من أنه عبر قلّة انتباه امرأته قد يكشف مكان اختبائه .

قال في نفسه : «إن عقل المرأة ضعيف ومتقلقل ، فإن استجوبوها وأريكوها أقرّت بمكاني ، وكان الموت مصيري لا محالة» .

(1) يعدّ اليهود الرّومان من أكبر أعداءهم ، عانوا منهم اضطهاداً وتنكيلاً قاسين طوال حكم روما للمشرق (64 ق.م - 395 م) ، وهدم تيطوس هيكلهم عام 70 م .

فلذا خرج شمعون وابنه من المدينة وأويا إلى كهف ناء في البرية ، وكان بقرب هذا الكهف بضعة أشجار فاكهة كانت تمدهم بالقوت ، ونبع ماء صاف ينبجس بين الصّخور في الجوار القريب . وعاش الرّابي شمعون هناك مدة ثلاث عشرة سنة ، إلى أن مات الإمبراطور وألغيت مراسيمه . فعاد عندها إلى المدينة .

فعندما دري صهره الرّابي فتحاس بمقدمه ، خفّ إلى زيارته على الفور ، ولما آنس انحساراً واضحاً في حالة نسيبه الذهنية والجسدية ، ابتدره قائلاً : «ويلتاه وأواه إذ ألقاك بهذه الحالة التّعيّسة !» .

غير أن الرّابي شمعون أجاب : «ليس الأمر بذلك ، بل الحمد لله أنك تجدني بهذه الحالة ، لأنك لا تراني أقلّ صلاحاً وتقىّ من ذي قبل . فلقد حفظني الله ، وحافظ على إيماني به ، ولذا فمن الآن وصاعداً لأستفيضنّ في شرح آية التّوراه : «وكان يعقوبُ إنساناً كاملاً»<sup>(1)</sup> . فهو كاملٌ في حالته الجسديّة ، وكاملٌ في حالته الدنيويّة ، وكاملٌ في معرفته بالله» .



---

(1) سفر التكوين - 25 : 27 .

أثناء مناقشة أنطونينوس للرأبي يهوداه ، قال له : «في الحياة الآخرة ، عندما تمثّل الرّوح بين يدي الخالق الأعظم للحساب ، ألا يمكن لها أن تجد دعوى للتّصلّ من الخطايا الدنيويّة ، بالقول : «إن هذا الخطايا كانت خطايا الجسد ، وإذ أنّي تخلّصتُ من الجسد ، فلستُ مسؤولة عن هذه الخطايا»؟» .

أجاب الرّابي يهوداه : «دعني أقصُّ عليك هذه الحكاية<sup>(1)</sup> : كان للملك بستان تين فاخر ، وكان لديه مفضلاً أثيراً . فكلّما تعرّض ثماره للسرقة أو الأذية ، عيّن على البستان حارسين اثنين ، ولكن ليديراً احتمال ألا تميل نفساهما إلى الأكل من ثمار البستان ، اختار الواحد منهما أعمى والآخر أعرج . ولكن إذ أضحيا في البستان ، قال الأعرج لصاحبه : «إنّي لأرى تيناً فائق الجودة ، وكم هو لذيذ وشهيّ ، احملني إلى الشجرة حتى نتمكّن كلانا من الأكل منه» .

«فقام الأعمى بحمل الأعرج ، وأكلا من التين .

ولمّا دخل الملك البستان لاحظ على الفور أن خير ثمار التين قد اختفت ، فسأل الحارسين عمّا جرى بها . فأجاب الأعمى : «لست أدري . وليس في إمكاني سرقتها ، فأنا أعمى ولا أستطيع رؤيتها» . وأجاب الأعرج : «ولا أنا بإمكانني سرقتها ، فلست أستطيع أن أطول الشجرة» .

«غير أن الملك كان حكيماً ، فأجاب : «بل قام الأعمى بحمل الأعرج» ، وعمد إلى معاقبتها وفقاً لذلك .

«فهذا هو شأننا . ما الدّنيا إلا بستان أحلّنا فيه الملك الأزليّ ، لكي نتولّى حراسته ونقوم عليه ، ونفلق تُرابه ونعتني بشماره . أما الرّوح والجسد فما هما إلا الإنسان ، إن انتهك أحدهما الوصايا انتهكها الآخر ، ولذا فبعد الموت ما ينبغي للرّوح أن تقول : «إنه بسبب الجسد الذي كنتُ لازمةً به ارتكبتُ المعاصي» ، لا فالله سيفعل كما فعل صاحب البستان ، كما هو مكتوب : «يدعو من السموات من فوق ، إلى الأرض إلى مُداينة شعبه»<sup>(2)</sup> .

(1) نرى في قصص تراثنا الإسلاميّ تشابهاً ، كما في كتاب «التوابين» لابن قدامة لمقدسي .

(2) مزموّر لأساف ، سفر المزامير - 50 : 4 .

«يدعو من «السَّمَوَاتِ مِنْ فَوْقِ» ، التي هي الرُّوح ، «إِلَى الْأَرْضِ تَحْتَ» ،  
التي هي الجسد ، الممتزج بالتراب الذي منه أتى» .

\* \* \*

قال رجلٌ وثنيٌّ للرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «أَتُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ الْغَيْبَ؟» .  
أجاب الرَّابِّي : «نَعَمْ» .

قال السَّائِلُ : «إِذَا مَاذَا هُوَ مَكْتُوبٌ : «فَقَالَ الرَّبُّ : «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ  
الْأَرْضِ كُلِّ مَا خَلَقْتُهُ ، لِأَنِّي حَزَنْتُ أَنْيَ عَمَلْتُهُمْ» ؟ (سفر التكوين 6 : 7) ، أَلَمْ  
يعرف الرَّبُّ مُسَبِّقاً بِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُفْسِدُ وَيَعْمَلُ الشَّرَّ؟» .

فقال الرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «أَلَدَيْكَ أَوْلَادٌ؟» .

فكان جواب الرَّجُلِ : «نَعَمْ» .

«فَمَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ عِنْدَمَا يُوَلِّدُ لَكَ طِفْلٌ؟» .

«كُنْتُ أَعْمَلُ حَفْلًا عَظِيمًا» .

«فَمَا الَّذِي كَانَ يَدْفَعُكَ إِلَى الْإِبْتِهَاجِ ؟ أَلَا تَعْلَمُ بِأَنَّهُمْ مَائَتُونَ يَوْمًا؟» .

«بَلَى ، هَذَا حَقٌّ ، لَكِنِّي فِي سَاعَةِ الْإِبْتِهَاجِ لَا أَفَكِّرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ» .

قال الرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «فَهَذَا هُوَ إِذَا شَأْنُ اللَّهِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَوْفَ  
يُخْطِئُ ، لَكِنِ عِلْمُهُ هَذَا لَمْ يَحُلْ دُونَ تَفْهِيدِ غَرَضِهِ الطَّيِّبِ فِي خَلْقِهِ إِيَّاهُ» .

\* \* \*

قال أحد الأباطرة للرَّابِّيونَ جَمَلِيثِيلُ :

«مَا إِلَهُكَ إِلَّا لَصٌّ ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ : «فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ  
فَنَامَ ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ»<sup>(1)</sup>» .

فَقَالَتْ ابْنَةُ الرَّابِّي : «دَعْنِي أُجِيبُ عَلَى هَذَا الطَّعْنِ الْبَاطِلِ . فِي اللَّيْلِ دَخَلَ  
الْأَصْوَصُ غُرْفَتِي فَسَرَقُوا مِنْهَا آنِيَّةً فَضِيَّةً ، لَكِنَّهُمْ تَرَكَوْا بَدَلَهَا آنِيَّةً ذَهَبِيَّةً» .

(1) سفر التكوين - 2 : 21 .

فقال الإمبراطور : «ليت مثل هؤلاء اللصوص يأتون كل ليلة» .  
فهذا كان شأن آدام ، أخذ الله منه ضلعاً ، لكنه ترك بدله امرأة .

\* \* \*

قال الرّابي يهوئشوع من سكّنين ، نقلاً عن الرّابي ليثي : «أخذ الرّب يفكر من أيّ جزء من جسم الرّجل يخلق المرأة : ليس من الرّأس ، لئلا تكون مغرورة . ولا من العينين ، لئلا ترغب برؤية كل شيء . ولا من الفم ، لئلا تكون ثرثارة . ولا من الأذن ، لئلا ترغب بسماع كل شيء . ولا من القلب ، لئلا تغلب عليها صفة الحسد . ولا من اليد ، لئلا ترغب باستكشاف كل شيء . ولا من القدم ، لئلا تكون جوّالة لا يقرّها قرار . وإنما من أكثر مكان احتجاباً ، وهو الذي يبقى مستوراً حتى وإن كان الرّجل عارياً . . ألا وهو الضّلّع» .

\* \* \*

في إحدى المرّات ، سأل تلاميذ الرّابي شمعون بن يوحاي معلّمهم :  
«لماذا لم يهب الرّب بني يسرّئيل ما يكفى من المّنّا ، لتقوم بأودهم حوّلاً كاملاً مرّة واحدة ، بدلاً من إنزاله يومياً؟» .

فأجاب الرّابي : «سأجيّبكم بحكاية : كان هناك في بعض الأيام ملك وله ابن كان يعطيه مصروفاً سنوياً معيّناً ، وكان يدفع المبلغ بأكمله لنفقاته السنوية في يوم محدّد . وسرعان ما أصبح الأمر على نحو أن هذا اليوم الذي ينبغي فيه دفع المبلغ كان اليوم الوحيد الذي يرى الأب فيه ابنه . فلذا قام الملك بتغيير ترتيباته ، وصار يعطي ابنه في كل يوم ما يقوم بشأنه لذلك اليوم حصراً ، ولذا صار الابن يزور أباه عند طلوع شمس كل صباح .

«فهذا كان شأن بني يسرّئيل ، وكان كلّ ربّ عائلة معتمداً على المّنّا التي ينالها في كل يوم من فضل الله ، لقوّته وقوّت عياله ، وهذا ما جعل بطبيعة الحال تفكيره مكرّساً للوهاب العظيم وسنّد الحياة» .

\* \* \*

عندما كان الرَّابِّي إليعيزرَ مريضاً عادَهُ تلاميذه ، وقالوا : «أيها الرَّابِّي ،  
علّمنا طريق الحياة كي نرث الخلود» .

فأجاب الرَّابِّي : «كرّموا أقرانكم . واعرفوا لمن تصلّون . امنعوا أبناءكم  
من المجادلات العبيّة ، واجعلوهم بين المتعلّمين لكي يحصلوا الحكمة . فهذا لكي  
تستحقّوا الحياة في العالم الآخر» .

ولما كان الرَّابِّي يُوخّنان مريضاً زاره تلاميذه أيضاً . فلما رآهم طفق يبيكي ،  
فقالوا له متعجّبين : «يارابينو<sup>(1)</sup> ! يا نُورِيسرئيل ! يا عمادنا الأكبر ! ما الذي  
يُبيكيك ؟» .

فأجاب الرَّابِّي : «لو كنت مُقبلاً على المُثول بين يدي ملك من لحم ودم ،  
يعيش اليوم وغداً يُمسي إلى رمسه ؛ مَنْ قد يسخط عليّ ، ولكن ليس إلى الأبد ؛  
مَنْ يسجنني ، ولكن ليس للأبد ؛ مَنْ قد يقتلني ، ولكن في هذه الدّنيا فحسب ؛  
مَنْ قد أُرشيهِ أحياناً ، حتى وإن خفت منه ؛ كان ذلك كله ليهون . ولكنني أمثل  
الآن بين يدي ملك الملوك ، القدّوس الأكبر ، تبارك اسمه ، الذي يبقى إلى أبد  
الدّهر . الذي إن غضب ، كان غضبه أبدياً ؛ وإن سجنني ، فللأبد ؛ وإن أمر  
بقتلي ، ففي الحياة الآخرة ؛ وليس بوسعي رشوته لا بالكلام ولا المال . ليس  
هذا فحسب ، بل أمامي طريقان ، أحدهما يُفضي إلى حوامة العذاب ، والآخر  
إلى الثّواب ، ولست أدري على أيّهما أسير . أفلا أبكي إذا ؟» .

\* \* \*

سأل تلاميذ الرَّابِّي يُوخّنان بن زكّاي معلّمهم هذا السّؤال :

«ما السّبب في أنه ، بحسب الشريعة ، تكون عقوبة قاطع الطريق أخفّ  
وطأة من عقوبة السّارق النّقاب ؟ فحسب شريعة مُوشيه : «إذا سرق إنسان ثوراً  
أو حملاً فذبّحه أو باعه ، يُعوّض عن الثّور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل بأربعة من  
الغنم» (سفر الخروج : 21 : 37) .

(1) الصيغة في العبرية : 267 ، وتعني : سيّدنا .

أما عن قاطع الطريق فنجد : «فإذا أخطأ وأقر بذنبه ، يردُّ المسلوب الذي سلبه ، يُعوّضه برأسه ويزيد عليه خُمسه»<sup>(1)</sup> . ولذلك ، فمن يرتكب عمل سلب يُغرّم بخُمس قيمة المسلوب ، بينما يُغرّم السارق النّقاب عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل<sup>(2)</sup> بأربعة من الغنم . فلماذا يكون ذلك ؟ .

فأجاب المعلّم : «ذلك بأن قاطع الطريق السّلاب يعامل العبد كمعاملة السيّد ، فهو يقوم بالسّلب بحضور العبد ، أي الإنسان المسلوب ، والسيّد ، أي الله . أمّا السارق المتسلّل النّقاب فيتصور أن عين الله غافلة عنه ، فيقوم بأفعاله خفية ، وهو يحسب كما يقول صاحب المزامير : «ويقولون : الربّ لا يبصر ، وإله يعقوب لا يلاحظ» (المزامير 94 : 7) . اسمعوا هذه الحكاية : «عمل رجلان وليمة احتفال ، فبادر الواحد منهما إلى دعوة سكان المدينة بأجمعهم ، وأهمل دعوة الملك . أما الآخر فلم يدعُ لا الملك ولا رعيّته . فمن تُراه منهما يستحقّ الإدانة ؟ لا ريب أنه الذي دعا الرعيّة دون الملك . وطالما كان أهل الأرض رعيّة الله ، فإن السارق المتسلّل يخشى عيونهم ، ولكنه لا يابه لعين الملك ، أي عين الله المطلعة على أفعاله كلّها» .

قال الرايبي مثير : «إن هذه الشريعة تعلّمنا كيف يقدر الله قيمة العمل . فإن سرق إنسان ثوراً يعوّض عنه بخمسة ثيران ، لأنه عندما كان الثور في حوزته بغير وجه حقّ لم يكن يؤدّي عملاً لصاحبه الشرعي . وأمّا الحَمَل فلا عمَل له ، ولا إنتاج له على هذا النحو ، ولذلك فهو يعوّض عنه بأربعة فقط» .

\* \* \*

تعشى الرايبي نَحمان مع معلّمه الرايبي يصحاق ، ولما قام بعد الأكل قال : «باركني يا معلّمي !» . فأجاب الرايبي يصحاق : «اسمع . كان مُسافرٌ يجتاز بالصحراء يوماً ، فلما أخذ منه التعب والجُوع والعطش كلّ ما أخذ ، بلغ واحة بها شجرة مُثمرة وارفة الأغصان ، يجري تحتها نبع ماء صافٍ رقيق .

(1) سفر اللّويين - 6 : 4 .

(2) ترد العبارة في التّرجمة العربية : الشّاة ، وهو غلط ، فالعبارة العبرية ַחַמַל تعني الحَمَل .

«فأكل الغريب من الفاكهة اللذيذة الطيبة ، واستمتع وتقيّل في الظلّ الماتع ، وروى ظمأه من الماء الفوّار الذي كان ينبجس رقراقاً تحت قدميه . ولما تاهّب لمتابعة رحلته ، توجه إلى الشجرة وقال لها :

«أيتها الشجرة المباركة ، بأية كلمات أباركك ، وأيّ خير أتمناه لك ؟ لا أقدر أن أتمنى لك طيب الثمار ، فهي لك بالأصل وعلى كلّ حال ؛ وكذلك فبركة ووفرة الماء صائرة إليك سلكاً ، والظلّ الماتع الذي تمنحه الأغصان الجميلة قد وهبه الله الأزلي لك من قبل ، من أجلي أنا ومن أجل كلّ مسافر على هذا الدرب . فذرّيني إذا أدعو الله لك ، بأن يكون كلّ خَلْف لك طيباً مباركاً مثلك» .

«فهكذا هو شأنك يا تلميذي . كيف تراني أباركك ؟ فأنت ممتازٌ في معرفة الشريعة ، ووجيهٌ في الأرض ، ومُبجّلٌ ومُباركٌ في معاشك . فليهبك الله أن تكون ذُرّيّتك كلّها صالحّة على مثالك» .

\* \* \*

كان جبّعاه بن پسيّسياه رجلاً حكيماً ، كما يقول الحاخامون . فلما قاضى أبناء كنعان اليسرئيليين بدعوى سرقة أرضهم ، قائلين : «أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «أرض كنعان . . أرض كنعان بتخومها» (عدد 34 : 2) ، وطالبوا بردها ، تصدّى جبّعاه لمرافعة القضية أمام الحاكم .

فقال جبّعاه لهؤلاء الأفارقة : «إن كنتم تأتون ببرهانكم من أسفار التوراه ، فمن التوراه أيضاً أدحضه لكم . ففيها : «ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته» (سفر التكوين 9 : 25) . فأملك العبد تعود في هذه الحالة لمن ؟ لسيّده طبعاً . حتى وإن كان مُلك الأرض أصلاً لكم ، فمن خلال العبوديّة آل إلى بني يسرئيل .

قال الحاكم : «دوّنكم فردّوا عليه» .

فطلب المدّعون ثلاثة أيام لإعداد ردّهم ، ولكنهم في ختام الأيام الثلاثة توارّوا عن الأنظار .

ثم تقدّم المصريون قائلين : «وأعطى الربُّ نعمةً للشعب (اليسرئيليين) في عيون المصريين ، حتى أعاروهم فضةً وذهباً»<sup>(1)</sup> . فالآن هلّموا أعيدوا لنا الذهب والفضة التي أعارها لكم أجدادنا» .

ومجدداً تقدّم جبعاه بالنيابة عن حاخامي يسرئيل ، فقال : «أقام بنو يسرئيل في مصر أربع مئة وثلاثين سنة ، فهلّموا الآن ، ادفعوا لنا أجور الست مئة ألف رجل الذين عملوا لكم مجاناً ، فتردّ لكم الذهب والفضة» .

ثم تقدّم بنو يشمعييل وقطوراه أمام الإسكندر المقدوني ، فقالوا : «ببل أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يشمعييل بن أبرهَام» ، تماماً كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يصحاق بن أبرهَام» . ولما كان الابن يعدل الابن الآخر ، فهلّم أعطنا نصيبنا» .

فقام جبعاه ثانيةً نائباً عن الحاخاميم ، وقال : «من التوراه التي تأخذون منها برهانكم أردّ دعواكم . أليس مكتوباً : «وأعطى أبرهَامُ يصحاقَ كلِّ ما له ، وأما بنو السّراري اللواتي كانت لأبرهَام فأعطاهم أبرهَام عطايا»<sup>(2)</sup> . فالرجل الذي يعطي لأبنائه ميراثهم خلال فترة حياته ، لا يقصد من خلال ذلك أن يعطيهم إياه ثانيةً بعد موته . فليصحاق أعطى أبرهَام كلِّ ما يملك ، ولأبنائه الآخرين سواء أعطى عطايا ، ثم صرفهم .

يقول الحاخامون : «كان الملك مُنماص من سلالة الملوك الحشمونيين رجلاً صالحاً حقاً . وهب للفقراء خلال فترة من فترات المجاعة كلِّ ما في خزانته وخزانة أبيه ، فلامه أقرباؤه وانتقدوه قائلين : «كلِّ ما جمعه أبوك ضيعته وبدّدته» .

فأجاب مُنماص : «أبي كوّم هذه الكنوز هنا على الأرض ، أما أنا فأجمعها فوق في السموات . و«كَمَر الصّدّيق شجرة حياة ، ورايحُ النفوس حكيماً»<sup>(3)</sup> . فأبي اخترزنها حيث يمكن أن تصل إليها أيدي الناس ، أما أنا فقد جعلتها حيث لا

(1) سفر الخروج - 13 : 26 .

(2) سفر التكوين - 25 : 5 .

(3) سفر الأمثال - 11 : 30 .

تبلغها يدُ بشر . وإذ جاء في الكتاب : «العدلُ والحقُّ قاعدةُ كُرسِيك»<sup>(1)</sup> . فلا بُدَّ لي  
 لم يُثمر هذا الكنز آية ثمار ، لكنه أثمر لي وأكثر أضعافاً مضاعفة . «قولوا  
 للصديق خيراً ، لأنهم يأكلون ثمرَ أفعالهم»<sup>(2)</sup> . لقد ادّخر أبي مالاً ، وادّخرتُ أنا  
 حياة . «ثمرُ الصديق شجرة حياة ، ورايحُ النفوس حكيمة»<sup>(3)</sup> . أبي ادّخر لغيره ،  
 وأنا ادّخرتُ لنفسي ؛ وكان ادّخاره لهذه الحياة الدّنيا ، بينما ادّخرتُ للأخرة .  
 «ويسيرُ بركُ أمامك ، ومجدُ الربِّ يجمعُ ساقَتك»<sup>(4)</sup> .

\* \* \*

---

(1) من قصيدة لإيتان الأزراحي في سفر المزامير - 89 : 14 .  
 (2) سفر يشعيا - 3 : 10 .  
 (3) سفر الأمثال - 11 : 30 .  
 (4) سفر يشعيا - 58 : 8 .